المحـور الثالث عشر

رسائل ترشيد الصحوة

غير مرخصة للطباعة

١٩٩

المُبشِّرات بانتصار الإسلام

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أُمَّتي سيبلغ مُلْكُها ما زُوِي لي منها**». رواه مسلم.

عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبقى على ظهر الأرض بيت مَدَرٍ، ولا وَبَرٍ إلَّا أدخله الله كلمة الإسلام، بعِزِّ عزيزٍ أو ذُلِّ ذليلٍ، إمَّا يُعِزُّهم الله فيجعلهم من أهلها، أو يُذِلُّهم فيَدينون لها**». رواه أحمد والطبراني والحاكم.

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أُمَّتي على الدِّين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك**». قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: «**ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس**». رواه أحمد والطبراني.

غير مرخص للطباعة
نسخة تجريبية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الَّذي بنعمته تتمُّ الصالحات، والصَّلاة والسلام على مُعَلِّم النَّاس الخير، وهادي البشريَّة إلى الرشد، وقائد الخلق إلى الحقِّ، سيِّدنا وإمامنا، وأُسوتنا وحبيبنا مُحمَّد، وعلى آله وصحبه ومن اتَّبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أمَّا بعد)

فهذه الرسالة تتحدَّث عن «المُبشِّرات بانتصار الإسلام» وأعتقد أنَّ حديثنا عن «المبشرات» مطلوب ـ وخصوصًا في هذه الآونة ـ لأكثر من سبب:

١ ـ هو مطلوب؛ لأننا مأمورون بصفة عامَّة أنْ نُبشِّر ولا ننفِّر، كما نحن مأمورون أن نُيسِّر ولا نُعسِّر، فإنَّ النبيَّ ﷺ حينما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن أوصاهما بهذه الوصية الموجزة الجامعة: «**يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوعا**»[(١)]، وكذلك روى صاحبه وخادمه أنس بن مالك أنَّه أمر الأمَّة كلها بما أمر به معاذًا وأبا موسى فقال: «**يَسِّروا ولا تُعسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنفِّروا**»[(٢)].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣)، كلاهما في الجهاد.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، عن أنس.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأحمد الله أنَّ هذا هو المنهج الَّذي وفقني الله إلى التزامه في الفتوى والدعوة، ففي مجال الفتوى: التزمت التيسير لا التعسير، وفي مجال الدعوة: التزمت التبشير لا التنفير. ولله الفضل والمنة.

٢ ـ وهو مطلوب؛ لأنَّ المسلمين عامَّة، والعاملين للإسلام خاصَّة، يَمُرُّون بمرحلة عصيبة من مراحل تاريخهم المعاصر، وتكاد تغلب في هذه المرحلة عوامل اليأس، ومشاعر الإحباط، وهذا الشعور إذا استسلمت له الأنفس، قتل فيها الهمم، وخدَّر العزائم، ودمَّر الطموحات، وهذه المعاني هي الَّتي تُحَرِّك الإرادات للعمل، وبذل الجهد.

ومردُّ هذا الشعور الأسود إلى الضربات المتلاحقة الَّتي تُوَجَّه بخُبْثٍ ومَكْر ـ من أعداء الإسلام ـ إلى الصحوة الإسلاميَّة، والحركة الإسلاميَّة، بغية إطفاء نور الإسلام، ووقف حركته، وتمويت يقظته، واستعانوا على ذلك ببعض حكام المسلمين، الَّذي خوَّفوهم من الصحوة، وحرَّضوهم على الصفوة، وأمروهم بضرب الدعوة، وللأسف استجاب لهم أولئك الحاكمون، الَّذين يخافون من انتصار الإسلام أنْ يحرمهم من شهواتهم، وأن يُجَرِّدهم من مكاسبهم المُحَرَّمة، وأنْ يُجَرِّئ عليهم الشعوب، لتحاسبهم على ما اقترفوا.

٣ ـ وهو مطلوب؛ لأنَّ القوى المعادية للإسلام، تريد أن تعلن ـ بل قد أعلنت بالفعل ـ على الإسلاميِّين حربًا نفسيَّة، تُيْئِسُهُم من الأمل في غد أفضل، والرجاء في مستقبل مشرق. وبدأت حملات مسعورة، تُحَرِّكها قلوب موتورة، وتقودها أقلام مأجورة، وأبواق مأمورة، تتَّهم وتلطِّخ وتشوِّه كلَّ ما هو إسلامي، وتتَّهم دعاةَ الإسلام وأبناء الصحوة بالتَّطَرُّف حينًا، وبالعنف أحيانًا، وبالإرهاب طورًا، وبالأصوليَّة أطوارًا، مُطْلِقين على

QaradawiBooks.com

الحركة الَّتي تدعو إلى الإسلام المتكامل ـ عقيدة وشريعة، ودينًا ودولة ـ اسم: «الإسلام السِّياسيّ»، والإسلام الحقيقيّ لا بدَّ أن يكون سياسيًّا.

لهذا كان علينا أن نقاوم هذه الحملات المعادية بسلاح مضادّ، وهو نشر الأمل بانتصار الإسلام، وإحياء الرجاء في مستقبله، وشحن نفوس الجيل الصاعد بهذا الشعاع الَّذي يُبَدِّد ظلمات اليأس، وغيوم الإحباط.

٤ ـ وهو مطلوب كذلك؛ لأنَّ كثيرًا من المتدينين يشيع بينهم فكر مغلوط عن «آخر الزمان» وبعبارة أخرى: عن مستقبل الأمَّة، وهو مستقبل أقرب إلى السواد، إن لم يكن أسود حالكًا، وهو فكرٌ مُؤَسَّسٌ على أفهام شاعت لبعض الأحاديث الَّتي وردت في سياق الكلام عن الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ولكن هذه الأفهام غير سليمة.

لهذا كُنَّا في حاجة إلى تجلية حقيقة «المُبَشِّرات» الغائبة عن كثيرين: من القرآن الكريم، ومن السُّنَّة المشرفة، ومن التاريخ الحافل، ومن الواقع الماثل، ومن سنن الله الثابتة، الَّتي لن تجد لها تبديلًا، ولن تجد لها تحويلًا.

وكل داعية للإسلام يجب أن يكون واثقًا بوعد الله تعالى، مستبشرًا بمستقبل رسالته الخاتمة، ودعوته الخالدة، رافضًا اليأس الَّذي هو من لوازم الكفر، والقنوط الَّذي هو من مظاهر الضلال.

وهكذا وجدت إمامنا الشهيد حسن البنَّا، لم تنطفئ شعلة الأمل في صدره في أشد الأوقات حرجًا، وكم دبَّج في ذلك المقالات الَّتي تُحْيِي الأمل، وتبعث الرجاء، وكم كرَّر في رسائله أنَّ حقائق اليوم هي أحلام الأمس، وأحلام اليوم هي حقائق الغد[1]!

(١) انظر: رسالة إلى أي شيء ندعو الناس صـ ٥٣، ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، نشر المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

وكتب الشهيد سيِّد قطب كتابه: «المستقبل لهذا الدِّين»، وهكذا كلُّ الدعاة الأصلاء.

فلنستبشـــرْ خيرًا، ولنأمل خيرًا: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

الدوحة في شوال ١٤١٦هـ

مارس ١٩٩٦م

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

المُبشِّرات بانتصار الإسلام

يتحدَّث كثير من الدعاة عن آخر الزمان، وعن أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة، حديثًا يوحي مجمله أنَّ الكفر في إقبال، وأنَّ الإسلام في إدبار، وأنَّ الشرَّ ينتصر، والخير ينهزم، وأنَّ أهل المنكر غالبون، وأهل المعروف ودعاته مخذولون.

ومعنى هذا: أن لا أمل في تغيير، ولا رجاء في إصلاح، وأننا ننتقل من سَيّئ إلى أسوأ، ومن الأسوأ إلى الأشد سوءًا، فما من يوم يمضي إلَّا والَّذي بعده شرٌّ منه، حتَّى تقوم الساعة.

وهذا لا شك خطأ جسيم، وسوء فهم لما ورد من بعض النصوص الجزئيَّة، وإغفال للمبشِّرات الكثيرة الناصعة القاطعة، بأنَّ المستقبل للإسلام، وأنَّ هذا الدِّين سيُظهره الله على كلِّ الأديان، ولو كره المشركون.

لهذا كان من اللازم أن نتحدَّث عن هذه «المُبَشِّرات»، ونشيعها بين المسلمين، حتَّى نبعث الأمل المُحَرِّك للعزائم، ونهزم اليأس القاتل للنفوس.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهذه المُبشِّرات كثيرة والحمد لله، بعضها مبشِّرات نقلية من القرآن الكريم ومن السُّـــنَّة النبويَّة، وبعضها من التاريـــخ، وبعضها من الواقع، وبعضها من سنن الله في الخلق.

وسنتحدَّث عن كلِّ واحدة من هذه المُبَشِّرات في الصحائف التالية، بما يفتح الله به.

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

١

المُبشِّرات من القرآن الكريم

أوَّل هذه المُبَشِّـرات: ما جاء في القرآن ممَّا وعد به الله تعالى عباده المؤمنين بنُصْرة الإسلام، وإتمام نوره ولو كره الكافرون، وإظهاره على كل الأديان ولو كره المشركون.

نقرأ في سورة التوبة ـ في سياق الحديث عن الَّذين يعادون الإسلام من المشـركين وأهل الكتاب الَّذيـن حرفوا دينهم، واتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًـا من دون الله، والَّذيـن يأكلون أموال النَّـاس بالباطل، ويصدون عن سـبيل الله ـ قولـه تعالـى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

يقول العلامة ابن كثير في تفسـير هاتين الآيتين: «يقـول تعالى: يريد هؤلاء الكُفَّار من المشركين وأهل الكتاب: ﴿أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾، أي ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بدَّ أن يَتِمَّ ويَظْهَر، ولهذا قال تعالى مقابلًا لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، والكافر هو الَّذي يستر الشيء ويغطيه، ثمَّ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، فالهدى هو

QaradawiBooks.com

ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح، والعلم النافع، ودين الحق هو: الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدُّنْيَا والآخرة: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، أي على سائر الأديان، كما ثبت في «الصحيح»، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**إنَّ الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها**»(١).

وأخرج الإمام أحمد بمسنده، عن مسعود بن قَبِيصة ـ أو قَبِيصة بن مسعود ـ يقول: صلَّى هذا الحيُّ من محارب الصبح، فلمَّا صلَّوْا قال شابٌّ منهم: سمعتُ رسولَ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إنَّه ستُفْتَح لكم مشارقُ الأرض ومغاربُها، وإنَّ عُمَّالها في النار إلَّا من اتَّقى الله وأدَّى الأمانة**»(٢).

وأخرج الإمام أحمد أيضًا، عن تميمٍ الدَّارِيِّ يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعِزَّ، ولقد أصاب من كان كافرًا منهم الذُّلَّ والصَّغَار والجزية(٣).

وفي «المسند» أيضًا، عن عَدِيِّ بن حاتم يقول: دخلتُ على رسول الله ﷺ فقال: «**يا عَدِيُّ أسلمْ تسلمْ**» فقلتُ: إنِّي من أهل دين. قال: «**أنا أعلم بدِينِكِ منك**»، ثمَّ قال: «**إنِّي أعلم ما الَّذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنَّما اتَّبعه ضَعفةُ النَّاس ومن لا قوَّة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحِيْرة؟**»،

(١) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأحمد (٢٢٣٩٥)، عن ثوبان.

(٢) رواه أحمد (٢٣١٠٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٤٥٥): رواه أحمد، وفيه مسعود وشقيق بن حبان، وهما مجهولان.

(٣) رواه أحمد (١٦٩٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والطبراني (٥٨/٢)، والحاكم في الفتن (٤٣٠/٤)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨٠٧): رجال أحمد رجال الصحيح.

QaradawiBooks.com

قلتُ: لم أرَها وقد سمعتُ بها. قال: «**فوالَّذي نفسي بيده ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتَّى تخرج الظعينة من الحِيرَة حتَّى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتُفْتَحَنَّ كنوزُ كسرى بن هُرْمُز**»، قلتُ: كسرى بن هرمز؟ قال: «**نعم كسرى بن هرمز، وليُبْذَلَنَّ المال حتَّى لا يقبله أحد**». قال عَدِيُّ: فهذه الظعينة تخرج من الحِيرَة فتطوف بالبيت من غير جُوَارِ أحد، ولقد كنتُ فيمن فتح كنوز كِسْرى بن هُرْمُزَ، والَّذي نفسي بيده لتكونَنَّ الثالثة؛ لأنَّ رسول الله ﷺ قد قالها[(١)].

وروى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهبُ الليلُ والنَّهار حتَّى تُعْبَدَ اللَّات والعُزَّى**»، فقلتُ: يا رسول الله، إن كنتُ لأظنُّ حين أنزل الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ...﴾ ـ الآية ـ أنَّ ذلك تامٌّ. قال: «**إنَّه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثُمَّ يبعث الله ريحًا طيِّبة، فيتوفى كلّ من كان في قلبه مِثقال حبَّة خردلٍ من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم**»[(٢)]»[(٣)].

وهذا المعنى تكرَّر في سورة الصفِّ حيث يقول تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨، ٩].

وفي سورة الفتح قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨].

---

(١) رواه أحمد (١٨٢٦٠)، وقال مخرِّجوه: بعضه صحيح، وهذا إسناد حسن. والحاكم في الفتن والملاحم (٥١٨/٤، ٥١٩)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٠٧).

(٣) تفسير ابن كثير (١٣٦/٤، ١٣٧)، تحقيق سامي محمد سلامة، نشر دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

ومن المُبشِّرات القُرْآنيَّة قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

يقول ابن كثير: «هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنَّه سيجعل أُمَّتَه خلفاءَ الأرض، أي أئمَّة النَّاس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنًا وحكمًا فيهم، وقد فعله تعالى، وله الحمد والمنَّة، فإنَّه ﷺ لم يمُتْ حتَّى فتح اللهُ عليه مكَّة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر وإسكندريَّة وهو المُقَوْقِس، وملوك عُمَان، والنَّجاشي ملك الحبشة، الَّذي تملَّك بعد أَصْحَمَة رحمه الله وأكرمه.

ثمَّ لمَّا مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصِّدِّيق، فلمَّ شَعَثَ ما وهَى بعد موته ﷺ، وأخذ جزيرةَ العَرَبِ ومَهَّدها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صُحْبَةَ خالدِ بن الوليد رضي الله عنه، ففتحوا طرفًا منها، وجيشًا آخر صُحْبَةَ أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتَّبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا صُحْبَةَ عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشَّامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حُوران وما والاها.

وتوفَّاه الله عز وجل، واختار له ما عنده من الكرامة، ومنَّ على أهل الإسلام بأنَّ ألهم الصِّدِّيق أن يستخلفَ عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قيامًا تامًّا، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوَّة سِيرَته، وكمال

QaradawiBooks.com

عدله، وتمَّ في أيامه فتح البلاد الشاميَّة بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثرِ إقليم فارس، وكَسَر كِسْرى، وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكتــه، وقَصَر قَيْصَــر، وانتزع يَــدَه عن بــلاد الشــام، وانحدر إلى القُسْــطَنْطِينِيَّة، وأنفق أموالهما في ســبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربِّه أتمُّ سلامٍ وأزكى صلاة.

ثُــمَّ لمَّا كانت الدولــة العُثمانيَّــة ـ دولة عثمان بن عفــان ـ امتدَّت الممالك الإسلاميَّة إلى أقصى مشــارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كِسْرى وباد مُلْكُه بالكُلِّيَّة، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنيــن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلــك ببركة تلاوته ودراســته وجمعه الأمَّة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في «الصحيح» أنَّ رســولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ الله زوى لي الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وســيبلغ مُلْكُ أُمَّتي ما زوي لي منها**»[1]. فها نحن نتقلَّب فيما وعدنا الله ورســوله، وصدق الله ورسوله، فنســأل الله الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الَّذي يرضيه عنَّا»[2] اهـ.

وهذا الوعد الإلٰهيُّ للمؤمنين وعدٌ دائمٌ ومستمرٌّ، وما تحقَّق في عهد الخلفاء الراشــدين من نصرٍ وتمكين، يمكن أنْ يتحقق لمن بعدهم، فإنَّ وعد الله تعالى لا يتخلــف، قال تعالــى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]. ووعد الله هنا مشروط بالإيمان وعمل الصالحات وعبادة الله وحده، وعدم الإشراك به، قال تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

(١) سبق تخريجه صـ ١٤.

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٧٧، ٧٨).

QaradawiBooks.com

قصص الرسل وعاقبة المؤمنين والمُكَذِّبين:

ومن المُبشِّرات القُرْآنيَّة ما قصَّه علينا القرآن من قصص الرسل والمؤمنين وأقوامهم، ومخالفيهم من المشركين، وكيف كانت العاقبة للرسول والَّذين آمنوا معه، وكان الهلاك والدمار للَّذين تمرَّدوا على الله وكذبوا المرسلين.

ومن ذلك: قصَّة موسى وقومه وفرعون وملئه، وكيف حوَّل الله بني إسرائيل على يد موسى من حال إلى حال، وأغرق فرعون وجنوده، وحقَّق الله إرادته في تمكين المستضعفين، وإدالة دولة الطاغين المُتَجَبِّرين.

اقرأ هذه الآيات من سورة القصص:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٤ ـ ٦].

فسَخِر القَدَر الأعلى من فرعون وملئه وجنده، فقد كان يذبح أبناء بني إسرائيل حتَّى لا يظهر منهم من يزول ملكه على يديه. فإذا الطفل الموعود يدخل قصر فرعون بإرادته، وينشأ ويترعرع فيه وتحت سمعه وبصره، وهو لا يدري، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص: ٨].

وكان ما كان من أمر موسى وفرعون ممَّا قصَّ علينا القرآن تفصيلًا، وبعث الله موسى رسولًا إلى فرعون وقومه، ومعه أخوه هارون، وكان لقاء وتحدٍّ انتهى بهزيمة فرعون على أيدي سَحَرته أنفسهم، الَّذين خرُّوا ساجدين، وقالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢].

QaradawiBooks.com

وجُنَّ جنون فرعون، وهدَّد وتوعَّد، وأرغى وأزبد. وأوحى الله إلى موسى أن أَسْرِ بعبادي ليلًا إنكم متَّبعون. ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۞ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۞ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٣ ـ ٥٩].

وعد الله بنصر المؤمنين وإنجائهم والدفاع عنهم:

ومن المُبشِّرات القُرْآنيَّة: وعد الله المؤمنين بالنصر والنجاة والدفاع والولاية والمَعِيَّة، على وجه العموم.

اقرأ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩].

ويتأكَّد هذا الوعد الإلٰهي عند حلول المحن والشدائد بساحة المؤمنين، حين تمسُّهم البأساء في الأموال، والضرَّاء في الأبدان، والزلزلة في النفوس، هناك يكون النصر أقرب ما يكون من المؤمنين.

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. يقول الرسول والمؤمنون من قومه: متى نصر الله؟ استبطاءً لمجيء النصر، وكان الإنسان عجولًا، وهنا يُطمئنهم الله بهذه الجملة الفاصلة الَّتي ختم بها

QaradawiBooks.com

الآية الكريمة ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾. ولكنَّه لا يعجل بعجلة أحدنا، وكل شيء عنده بمقدار، وبأجل مسمًّى، لا يستأخر ولا يستقدم.

وقال تعالى في خواتيم سورة يوسُف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

فانظر إلى هذه الصيغة ودلالتها ﴿ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، من طول ما ارتقبوا النصر، فلم يجئ في الوقت الَّذي كانوا يرغبونه، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، الضمير في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ يعود إلى الأقوام الَّذين أرسل إليهم الرسل، وذكروا في الآية السابقة، فهم ظنُّوا أنَّ الله أخلف رسله ما وعدهم، ولم يصدقهم الوعد.

وهنا تكون المفاجأة بعد الاستيئاس من جانب الرسل وظنِّ السوء من جانب أقوامهم المشركين ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾.

فهو يأتي أحوج ما يكون النَّاس إليه، وأرغب ما يكون في وصوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فهذا من سُنن الله مع المجرمين: ملاحقتهم بالبأس الإلٰهي حتَّى يؤدِّبهم ويعرِّفهم بمقدار أنفسهم، ويُخفِّف من غلوائهم.

ومن ثَمَّ استقرَّ في عقول المسلمين وقلوبهم: أنَّ الأزمة كلَّما اشتدَّت وتفاقمت آذنت بالانفراج، وأنَّ أحلك سُويعات الليل سوادًا هي السويعات الَّتي تسبق الفجر، وفي هذا قال الشاعر:

اشتدِّي أزمةُ تَنْفَرِجي ... قد آذنَ ليلُكِ بالبَلَجِ[1]!

(١) البيت من قصيدة المنفرجة لأبي الفضل ابن النحوي، انظر: المنفرجتان لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري صـ ٤٣، تحقيق عبد المجيد دياب، نشر دار الفضيلة، القاهرة.

QaradawiBooks.com

وقال الآخر:

ولرُبَّ نازلــةٍ يضيقُ بهــا الفتى ذرعًــا، وعند اللهِ منهــا المخرجُ!
ضَاقَتْ، فَلَمَّا استحكمت حَلَقَاتُها فُرِجَتْ، وكنتُ أظنُّها لا تُفْرَجُ[1]!

وعد الله بإحباط كيد الكافرين ومؤامراتهم:

يكتمل وعد الله بنصر المؤمنين: وعده سبحانه بإحباط كيد الكافرين، ومكرهم بالإســلام وأهله، وجهودهم الدائبة لإطفاء نــوره؛ وأنَّه تعالى سيرد كيدهم في نحورهم، ويعيد سهامهم المسمومة إلى صدورهم. وهو جلَّ شأنُه لا يخلف الميعاد.

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

وقوله تباركت أســماؤه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١، ٨٢].

وقــال تعالى في بيــان عاقبة بذلهم الأمــوال والجهــود للصدِّ عن الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ

(١) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي، انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (١٥/٥)، تحقيق عبود الشالجي، نشر دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

QaradawiBooks.com

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣].

والفئتان المذكورتان في الآية الكريمة هما: فئة المؤمنين وفئة المشركين في بدر، وقد نصر الله المؤمنين ـ وهم أقل عددًا، وأضعف عدة واستعدادًا ـ على المشركين، بما منحهم الله من إيمان وثبات، وما أنزل عليهم من جنده، وما قذف في قلوب أعدائهم من رعب، وما عملت فيهم يد القدر الأعلى بما هو فوق الأسباب المعتادة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧].

وقال تعالى في شأن جلاء بني النضير من اليهود: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

إنَّها يد الله، تعمل بالأسباب، ومن غير الأسباب، وهي مع المؤمنين دائمًا وأبدًا، حتَّى ينتصروا وتعلو بهم كلمة الله.

فسوف يأتي الله بقومٍ يُحِبُّهم:

ومن المُبشِّرات القُرْآنيَّة: ما ذكره الله تعالى في سورة المائدة، مهدِّدًا المُرْتَدِّين المارقين من الدِّين، بأنَّهم لن يَضُرُّوا دينَ الله شيئًا، ولن ينهدم الدِّينُ بارتدادهم عنه، فقد تكفَّل سبحانه بأنَّه يدَّخر لهذا الدين جيلًا من المؤمنين الأقوياء، يقاومون الرِّدَّة والمروق، ويقيمون الدِّين في أنفسهم: علاقة وثيقة ـ بل علاقة حبٍّ ـ بينهم وبين ربِّهم، وعلاقة تعاطف ورحمة

QaradawiBooks.com

مع أهل الإيمان، وعلاقة عـزَّة وقوَّة مع أهل الكفـر والطغيان، وعلاقة جهادٍ ونضالٍ مع أهل الشَّـر والمنكـر، فهذه أوصافهم الأساسـيَّة الَّتي أبرزها القرآن في معرض البشارة للمؤمنين، والنذارة للمُرْتَدِّين:

يقول تعالـى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى مخبرًا عن قدرتـه العظيمة: إنَّه من تولَّى عـن نصرة دِينِه، وإقامة شـريعته، بأنَّ الله سيسـتبدل به من هو خير لها منه، وأشـدُّ منعةً وأقومُ سـبيلًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

وقـال تعالـى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ [النساء: ١٣٣].

وقـال تعالـى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]، [فاطر: ١٦، ١٧]. أي ليس بممتنع ولا صعب»[(١)].

وقال ابن كثيـر في قوله تعالـى: ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ «أي: لا يردهم عمَّا هم فيه من طاعـة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لـوم لائم ولا عذل عاذل. وذكر ابن كثيـر هنا حديث أبـي ذرٍّ ـ الَّذي رواه الإمام أحمـد[(٢)] ـ قال رضي الله عنه :

(١) تفسير ابن كثير (١٣٥/٣).

(٢) رواه أحمد (٢١٤١٥)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وابن حبان في البر والإحسان (٤٤٩)، والطبراني (١٥٦/٢)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢١٦٦).

QaradawiBooks.com

أمرني خليلي ﷺ بسبعٍ ـ وذكر منها ـ: وأمرني أن أقول الحقَّ وإن كان مرًّا، وأمرني ألَّا أخاف في الله لومة لائم»[1].

سنُرِيهم آياتنا:

ومن المُبشِّرات القُرْآنيَّة قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذا وعد من الله تعالى، يبرز منه في كلِّ زمن ما نشهده بأعيننا، وما نسمعه بآذاننا، وما نُحِسُّه بقلوبنا.

ومن جملة ذلك: ما نراه في عصرنا من دراسات من أهل العلم الطبيعي والرياضي، لبيان أوجه جديدة للإعجاز العلمي في القرآن، وفي بعض هذه الدراسات نظرات جيِّدة وعميقة اعترف بها عددٌ من غير المسلمين.

* * *

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٣٦/٣).

QaradawiBooks.com

٢

المُبشِّرات من السُّنَّة النبويَّة

وفي السُّنَّة النبويَّة والسِّيرة النبويَّة: مُبَشِّرات كثيرة وفيرة، مرَّ بنا ذكر بعضها فيما نقلناه عن الحافظ ابن كثير.

وهذه المُبشِّـرات النبويَّة قد حفلت بها دواوين الحديث الشريف، من الصِّحاح والسـنن والمسـانيد والمعاجم والأجـزاء، وغيرها من المُصَنَّفات الحديثيَّة.

ولكن المسلمين ـ في عصور التراجع والتخلُّف ـ أغفلوها ونسوها، ولم يذكروا إلَّا أحاديث الفتن وأشراط الساعة، وقد فهموها فهمًا يوحِي باليأس من صـلاح الحال، ومـن كلِّ عمل ينهض بالأمَّـة من عثرتها، ويجتهد في تغيير الواقع إلى ما هو أحسن وأمثل. ولا يُعقل أنْ يصدر من هادي الأمَّة ما يثبّطها عن محاولة الإصلاح، وإرادة التغيير.

وكلُّ هذه المُبشِّرات إخبار بمستقبل الإسـلام، وأنَّ الغد له ولأمَّته، أخبر بها من لا ينطق عن الهوى.

وأودُّ أنْ أُذكِّر بأنَّ الرسول الكريم لا يعلم الغيب بذاته، فالله وحده هو الَّذي يعلم الغيب بذاتـه، كما قال ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

QaradawiBooks.com

وإنَّما يعلم الرسـول من الغيب ما أعلمه الله تعالى به، فهو يخبر به كما أعلمه الله سبحانه، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وسنذكر أهمَّ هذه المُبَشِّرات في الصحائف التالية:

١ ـ انتشار الإسلام في العالَم كلِّه:

من هذه المبشِّرات: ما رواه تميمٌ الدَّاري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقـول: «**ليبلغنَّ هذا الأمر** ـ يعني أمر الإسـلام ـ **ما بلغ الليـل والنَّهار، ولا يترك اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، إلَّا أدخله الله هذا الدِّين، بعِزِّ عزيزٍ، أو بذُلِّ ذليل، عزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلام، وذُلًّا يُذِلُّ الله به الكفر**»(١).

ومعنى بلوغه ما بلغ الليل والنهار: انتشـاره في الأرض كُلِّها، حيث يبلغ الليل والنهار، ودخول هذا الدِّين الحواضر والبوادي، فالحواضر هي الَّتي بيوتها من مدر (أي من حجر)، والبـوادي هي الَّتي بيوتها من وَبَر وشَعر، وسيدخل الإسلام جميعها، وبهذا يتحقَّق وعد الله تعالى في كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وذلك في ثلاث آيات [التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨، والصف: ٩].

ومعنى ظهوره على الدِّين كلِّه: غَلَبَتُه على جميع الأديان، وفي القرون الإسلاميَّة الأولى غلب الإسلام على اليهوديَّة والنصرانيَّة والوثنيَّة العربيَّة والمجوسيَّة، وبعض أديان آسـية وأفريقية، ولكنَّه لم ينتصر على جميع الأديان، فلا زلنا ننتظر هذه البشارة، ولن يخلف الله وعده.

---

(١) رواه أحمد (١٦٩٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والطبراني (٥٨/٢)، والحاكم في الفتن (٤٣٠/٤)، وصحَّحه على شـرطهما، ووافقـه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨٠٧): رجال أحمد رجال الصحيح.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

وأكد هذه البشارة: ما رواه المقداد بن الأسود، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا يبقى على ظهر الأرض بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أدخله الله كلمة الإسلام، بعزِّ عزيزٍ، أو بذُلِّ ذليل...**»[١] الحديث.

٢ ـ عودة الإسلام إلى أوربا وفتح رُوميَّة:

ومن المُبشِّرات: ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي قَبِيل قال: كُنَّا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل: أي المدينتين تفتح أوَّلًا: القسطنطينيَّة أو روميَّة؟ فدعا عبد الله بصندوق له حَلَق، قال: فأخرج منه كتابًا، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب[٢]، إذ سُئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولًا: قسطنطينيَّة أو روميَّة؟ فقال: «**مدينة هرقل**[٣] **تفتح أوَّلًا**»[٤].

---

(١) رواه أحمد (٢٣٨١٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وابن حبان في التاريخ (٦٦٩٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨٠٨): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) يدلُّ هذا على أن تدوين الحديث أو كتابته بدأ منذ عهد النبي ﷺ وعلى ذلك أدلَّة كثيرة، ومن المعروف أنَّ عبد الله بن عمرو كان له صحيفة يكتب فيها تسمى «الصادقة» ولعلَّها هي التي كانت في الصندوق ذي الحلق. الذي أخرجه ليجيب السائل.

(٣) هرقل هو الإمبراطور الذي كان يحكم دولة الروم البيزنطية في عهد البعثة المحمدية، وهو الذي أرسل إليه النبي ﷺ كتابه الشهير يدعوه فيه وشعبه إلى الإسلام. وهو الذي أحضروا إلى مجلسه أبا سفيان قبل إسلامه، وسأله عن النبي ودعوته أسئلة دقيقة تدلُّ على ذكائه وعقله، وتبين له منها صدق النبي ﷺ ولكنَّه حين اختبر من حوله فوجد منهم صدودًا ونفرة عن الإسلام غلب حب ملكه على اتباع الحقِّ، وباع الدين بالدنيا، وقد بقي إلى أن فتحت سوريا في عهد عمر رضي الله عنه فغادرها وهو يقول: سلام عليك يا سوريا، سلام لا لقاء بعده!

(٤) رواه أحمد (٦٦٤٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والحاكم في الفتن والملاحم (٥٥٥/٤)، وصحَّح إسناده على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣٨٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي قبيل، وهو ثقة. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤).

QaradawiBooks.com

ورومية هي: روما عاصمة إيطاليا الآن، والقسطنطينيَّة هي إستانبول الآن، يفهم من السؤال أنَّ الصحابة كانوا قد علموا قبل ذلك أنَّ الإسلام سيفتح المدينتين، ويدخل أهلهما في دين الله، ولكن يريدون أنْ يعرفوا: أيّ المدينتين تسبق الأخرى، فأجابهم أنَّ مدينة هرقل ـ وهي القسطنطينية ـ ستفتح أولًا.

وقد تحقَّق ذلك على يد الفتى العثماني الطموح «محمد بن مراد» ابن الثالثة والعشرين، والَّذي عرف في التاريخ باسم «محمد الفاتح»، وفتحت «مدينة هرقل» في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وبالتحديد: في يوم الثلاثاء (٢٠) من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ ـ ٢٩ أيار (مايو) سنة (١٤٥٣م).

وبقي الجزء الثاني من البشرى: فتح رومية، وبه يدخل الإسلام أوربا مرة أخرى بعد أن طُرد منها مرتين: مرة من الأندلس، ومرة من البلقان.

وظني أنَّ هذا الفتح سيكون بالقلم واللسان، لا بالسيف والسنان، وأنَّ العالم سيفتح ذراعيه وصدره للإسلام، بعد أن تشقيه الفلسفات المادِّيَّة «الأيديولوجيات» الوضعية، ويتطلع إلى مَدَد من السماء، وهَدْي من الله، فلا يجد إلَّا الإسلام طوقًا للنجاة.

و«الفتح السلمي» له أصل في الإسلام، فقد سمَّى الله تعالى صلح الحديبية فتحًا، بل «فتحًا مبينًا» وأنزل في ذلك سورة «الفتح» وفيها يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ...﴾ وسأل الصحابة رسول الله ﷺ: أفَتح هو يا رسول الله؟ فقال: «**نعم هو فتح**»[1].

(١) رواه أحمد (١٥٤٧٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، وابن أبي شيبة في المغازي (٣٨٠٠٢)، والحاكم في قسم الفيء (١٣١/٢)، وصحَّح إسناده، =

QaradawiBooks.com

٣ ـ اتساع دولة الإسلام في المشارق والمغارب:

ومن هذه المُبشِّرات: ما رواه مسلم وغيره عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض...**» الحديث[١].

ومعنى «**زوى لي الأرض**»: أي قبضها، وضمَّها وجمعها له ﷺ حتَّى يراها جملة واحدة.

وهذا الحديث يبشر باتِّساع دولة الإسلام حتَّى تشمل المشارق والمغارب، أي: الأرض كلها، فإذا كان حديث تميم الداري، وحديث المقداد السابقان ـ يؤذنان بانتشار دعوة الإسلام، وعلو كلمة الإسلام، فهذا الحديث يبشر بقوة دولة الإسلام واتساعها، بحيث تضم المشارق والمغارب، الَّتي رآها النبي ﷺ، وبهذا تلتقي قوَّة الدعوة، وقوَّة الدولة، وبعبارة أخرى: قوَّة القرآن وقوَّة السلطان، وفي هذا من الخير ما فيه.

٤ ـ الرخاء والأمن وفيض المال:

ومن هذه المُبشِّرات: ما رواه أبو هُرَيْرة عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**لا تقوم الساعة حتَّى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**»، وزاد أحمد في روايته: «**حتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلَّا ضلال الطريق**»[٢].

= ووافقه الذهبي، عن مجمع بن جارية. وهو متَّفق عليه بنحوه عن سهل بن حنيف: رواه البخاري في الجزية (٣١٨٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٥)، والسائل فيه عمر بن الخطاب.

(١) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأحمد (٢٢٣٩٥).

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٥٧) (٦٠)، وأحمد (٨٨٣٣).

QaradawiBooks.com

ومنها: ما رواه أبو هُرَيْرة أيضًا عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتَّى يكثر فيكم المال فيفيض، حتَّى يُهم ربَّ المال من يقبل منه صدقته، وحتَّى يعرضَه فيقول الَّذي يعرضُه عليه: لا أَرَبَ لي**»(١).

يُؤَكِّده حديث أبي موسى مرفوعًا: «**ليأتينَّ على النَّاس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب! ثمَّ لا يجد أحدًا يأخذها منه**»(٢).

ومثله حديث حارثة بن وهب مرفوعًا: «**تصدَّقوا، فإنَّه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها، يقول الرجل: لو جئت بها بالأمس لقبلتها، فأما اليوم فلا حاجة لي بها**»(٣).

وهذا كلُّه دليلٌ على ظهور الرخاء ورَغَد العيش، وزوال الفقر من المجتمع، بحيث لا يوجد فيه فقيرٌ يستحقُّ الصدقة أو يقبلها. وهذا من بركات عدل الإسلام، وأثر الإيمان والتقوى في حياة الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٥ ـ عودة الخلافة على منهاج النبوَّة:

ومن هذه المُبَشِّرات: ما رواه حُذَيْفة بن اليَمَان رضي الله عنه قال: «**تكون النبوَّة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثمَّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثمَّ تكون خلافة على منهاج النبوَّة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثُمَّ يرفعها الله إذا**

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٤١٢)، ومسلم (١٥٧) (٦١)، كلاهما في الزكاة.
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٤١٤)، ومسلم (١٠١٢)، كلاهما في الزكاة.
(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٤١١)، ومسلم (١٠١١)، كلاهما في الزكاة.

QaradawiBooks.com

شــاء أنْ يرفعها، ثُمَّ تكون مُلْكًا عاضًا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثُمَّ يرفعها إذا شاء أنْ يرفعها، ثُمَّ تكون ملكًا جبريًّا، فتكون ما شاء الله أنْ تكون، ثمَّ يرفعها إذا شاء أنْ يرفعها، ثمَّ تكون خلافة على منهاج النبوَّة» ثمَّ سكت[١].

والمُلْــكُ العاضُّ ـ وفــي رواية: العضوض ـ هــو الَّذي يُصيب النَّاس فيه عســف وظلم كأنَّ له أنيابًا تَعَضُّ. أمَّا مُلْك الجَبريَّة فهو القائم على الجبروت والطغيان، أشــبه بالحكم العسكري المستبدِّ في عصرنا.

فهذا الحديث يُبَشِّر بانقشاع عهود الاستبداد والظلم والطغيان، وعودة الخلافة الراشدة، المتَّبعة لمنهاج النبوَّة في إقامة العدل والشورى، ورعاية حدود الله وحقوق العباد.

٦ ـ الانتصار على اليهود:

ومن هذه المُبَشِّرات: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**تقاتلكم اليهود، فتُسلَّطون عليهم، ثمَّ يقول الحجر: يا مسلم، هذا يهوديٌّ ورائي، فاقتلْه**»[٢].

ومثله مــا رواه أبو هُرَيْــرة مرفوعًا: «**لا تقــوم الســاعة حتَّى يقاتل المســلمون اليهود، فيقتلهم المســلمون، حتَّى يختبئ اليهودي من وراء**

(١) رواه أحمد (١٨٤٠٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والبزار (٢٧٩٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٩٦٠): رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوســط ورجاله ثقــات. وقال الحافظ العراقي في محجــة القرب إلى محبة العرب صـ ١٧٦، ١٧٧: هذا حديث صحيح. نشــر دار العاصمة، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٩٣)، ومسلم في الفتن (٢٩٢١).

QaradawiBooks.com

الحجر والشـــجر، فيقول الحجر أو الشـــجر: يا مســـلم، يا عبد الله؛ هذا يهودي خلفي، فتعالَ فاقتُلْه»[(١)].

فهل ينطق الحجر والشجر بلسان المقال ـ آية من آيات الله، وما ذلك على الله بعزيز ـ أو ينطقان بلسان الحال؟ بمعنى أنَّ كلَّ شيء يدلُّ على اليهود، يكشف عنهم.

وأيًّا كان المراد، فالمعنى أنَّ كلَّ شـــيء سيكون في صالح المسلمين، وضد أعدائهم اليهود، وأنَّ النصر آتٍ لا ريب فيه، وأنَّ أسطورة «القوة الَّتي لا تقهر» الَّتي يشيعها اليهود لن تستمر، وأنَّ الَّذين اغتصبوا فلسطين بقوَّة السلاح، وسلاح القوَّة، سيخذلهم الله، الَّذي يملي للظالمين، ثمَّ يأخذهم أخذًا أليمًا شديدًا، ولن تغني عنهم ترسانتهم النووية الَّتي يُدِلون بها، كما لم تغن حصون أسلافهم من بني النضير عنهم شيئًا، حين جاءهم بأس الله الَّذي لا يرد عن القوم المجرمين، كما قال تعالى في شـــأنهم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

٧ ـ بقاء الطائفة المنصورة:

ومن هذه المُبَشِّرات: ما رواه عدد من الصحابة ﷺ، مثل ما رواه معاويـــة عنه ﷺ قـــال: «**لا تزال طائفـــةٌ من أُمَّتـــي قائمـــةً بأمر الله، لا يضرُّهـــم مَن خذلهم ولا مَـــن خالفهم، حتَّى يأتـــي أمر الله، وهم ظاهرون على النَّاس**»[(٢)].

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٢٢)، وأحمد (٩٣٩٨).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، واللفظ له.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد صحَّ هـذا الحديث من رواية عمـر[١] والمُغِيـرة[٢] وثوبان[٣]، وأبي هُرَيـرة[٤]، وقُرَّة بن إيـاس[٥]، وجابر[٦]، وعمران بـن حُصَيْن[٧]، وعقبة بن عامـر[٨]، وجابر بن سَـمُرة[٩]، وأبي أمامة، الَّـذي قال: قال رسـول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أُمَّتي على الدِّيـن ظاهرين، لعدوِّهم قاهرين، لا يضرُّهم من خالفهم، إلَّا ما أصابهم من لأواء حتَّى يأتي أمر الله، وهم كذلك**». قالوا: يا رسـول الله، وأين هم؟ قال: «**ببيت المَقْدِس وأكناف بيت المقدس**»[١٠].

ومعنى هذه الأحاديث كلِّها: أنَّ الخير سيسـتمر في هذه الأمَّة، وأنَّها لا تخلو من قائم لله بالحجَّة، ومن ناصر للحق، مستمسك به، حتَّى تقوم الساعة، وأنَّ هذه الطائفة المنصورة باقية حتَّى يأتي أمر الله، وإنْ أصابها ما أصابها من لَأْواء وأذى.

---

(١) رواه الطيالسي (٣٨)، والحاكم في الفتن والملاحم (٤٤٩/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤٠)، ومسلم في الإمارة (١٩٢١).

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، وأحمد (٢٢٤٠٣).

(٤) رواه أحمد (٨٩٣٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي.

(٥) رواه أحمـد (١٥٥٩٦)، وقال مخرِّجوه: إسـناده صحيح رجاله ثقـات. والترمذي في الفتن (٢١٩٢)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٦)، وابن حبان في العلم (٦١).

(٦) رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٣)، وأحمد (١٤٧٢٠).

(٧) رواه أحمد (١٩٨٥١)، وقال مخرِّجوه: إسـناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود (٢٤٨٤)، والحاكم (٧١/٢)، كلاهما في الجهاد، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٩٥٩).

(٨) رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٤).

(٩) رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٢)، وأحمد (٢٠٩٣٣).

(١٠) رواه أحمد (٢٢٣٢٠)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره، دون قوله: قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ إلخ، وهذا إسناده ضعيف. وأطالوا في التخريج فلينظر، والطبراني (١٤٥/٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢٤٨): رواه عبد الله وجادةً عن خط أبيه، والطبراني ورجاله ثقات.

QaradawiBooks.com

يُؤكِّد هذا ما رواه أبو مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله أجاركم من ثلاث خلال: ألَّا يدعو عليكم نبيُّكم فتهلكوا جميعًا، وألَّا يظهر أهلُ الباطل على أهل الحقِّ، وألَّا تجتمعوا على ضلالة**»[(١)].

٨ ـ ظهور المُجَدِّدين في كلِّ قرن:

ومن هذه المُبَشِّرات: ما رواه أبو هُرَيْرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأمَّة على رأس كلِّ مائة سنة، مَنْ يُجدِّد لها دينها**»[(٢)].

وكلمة «من» في الحديث تشمل «المفرد» كما قالوا عن عمر بن عبد العزيز والشافعي والغزالي، كما تشمل الجمع، كما ذهب إليه بعض الشُّرَّاح، وهو ما نختاره، فقد يكون المُجَدِّد جماعة دعويَّة أو تربويَّة أو جهاديَّة، وهنا يكون سؤال المسلم: ما دوري في حركة التجديد؟ بدل أنْ يكون كل همه انتظار ظهور المجدد، وهو لا حول له ولا قوَّة[(٣)]!

٩ ـ نزول المسيح:

ومن المُبشِّرات الَّتي صحَّت بها السُّنَّة: نزول المسيح عيسى بن مريم في آخر الزمان حاكمًا بشريعة الإسلام، خليفة لمحمد رسول الله وخاتم النبيين.

---

(١) رواه أبو داود في الفتن (٤٢٥٣)، والطبراني (٢٩٢/٣)، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير (٢٩٥/٣): في إسناده انقطاع. وقال في بذل الماعون صـ ١٢٩، ١٣٠: إسناده حسن، فإنه من رواية إسماعيل بن عياش عن الشاميين، وهي مقبولة. وقال الألباني في الضعيفة (١٥١٠): ضعيف بهذا التمام، والفقرة الأخيرة من الحديث صحيحة بشواهدها.

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وسكت عنه ولكن نقل تصحيحه المناوي في فيض القدير (١٨٤٥)، فلعلَّه سقط من المطبوع، وسكت عنه الذهبي. نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

(٣) انظر: كتابنا: من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا صـ ١١ وما بعدها، عنوان: تجديد الدين في ضوء السنة، نشر دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

وقد ذكر المحقِّقون من علماء الحديث أنَّ الأحاديث الَّتي وردت في هذا الشأن بلغت حد التواتر، الَّذي يثبت به العلم اليقيني.

وقد ذكر منها العلَّامة مولانا أنور الكشميري أربعين حديثًا ما بين صحيح وحسن ـ بخلاف الضعيف ـ في كتابه «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» الَّذي حقَّقه صديقنا العلَّامة الشيخ عبد الفتّاح أبو غدة.

ومن آمن بقدرة الله تعالى، الَّتي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، وعرف آيات الله تعالى في الكون، وآياته الَّتي أيَّد بها رُسُله، لم يصعب عليه أنْ يؤمن بنزول المسيح من السماء، بعد أنْ رفعه الله إليها، حين أراد أعداؤه قتله وصلبه عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، وحتَّى لو قلنا كما قال بعضهم: إنَّ المسيح مات، فليس بعيدًا ولا غريبًا أنْ يبعثه الله ويحييه، آية لخلقه، كما كان هو يحيي الموتى بإذن الله.

١٠ ـ ظهور المهدي:

ومن المُبشِّرات المشهورة في السُّنَّة: الأحاديث الَّتي جاءت في شأن ظهور المهدي، والصحيح منها الَّذي لا اعتراض عليه، ولا ينبغي أنْ يخالف فيه مخالف: أنَّ هناك حاكمًا مسلمًا ملتزمًا بالإسلام، سيظهر بعد عهود جور وفساد، ويقيم دين الله في الأرض، ويملؤها عدلًا، كما ملئت ظلمًا وجورًا. أمَّا الخلاف فهو في نسبه واسمه وشكله وصورته، ووقت ظهوره، وهذا لا يهمنا. إنَّما الَّذي يهمنا هو الفكرة نفسها، وهي مسلَّمة، وهي إحدى البشائر النبويَّة، وحسبنا هنا الحديث الَّذي رواه أحمد وأبو داود عن علي رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال:

QaradawiBooks.com

«لو لم يبقَ من الدُّنْيَا إلَّا يوم، لبعث الله رجلًا مِنَّا، يملؤها عدلًا، كما مُلِئَتْ جورًا»[١].

وروى الحاكم عن أبي سعيد مرفوعًا: **«لا تقوم الساعة حتَّى تُملأ الأرض ظلمًا وجورًا وعدوانًا، ثمَّ يخرج رجل من أهل بيتي يملؤها قسطًا وعدلًا، كما ملئت ظلمًا وجورًا وعدوانًا»**[٢].

وقد بالغ بعض المُتَأَخِّرين من المُؤَلِّفين في علم التوحيد، فأدخلوها في «العقائد» الَّتي يجب الإيمان بها.

وفي رأيي أنَّه لا ضرورة للتوسع في العقائد الَّتي يطلب الإيمان بها من عموم الناس، وحسْبنا ما جاء به القرآن من الإيمان بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله واليوم الآخر، وأضافت إليه السُّنَّة الإيمان بالقدر، وهو جزء من الإيمان بالله تعالى، ولذا لم يفرده القرآن بالذكر.

* * *

(١) رواه أحمد (٧٧٣)، وقال مخرِّجوه: رجاله ثقات. وأبو داود في المهدي (٤٢٨٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٠٥).

(٢) رواه الحاكم في الفتن والملاحم (٥٥٧/٤)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وأحمد (١١١٣٠)، وقال مخرِّجوه: صحيح. وابن حبان في التاريخ (٦٨٢٣).

QaradawiBooks.com

٣
مُبَشِّرات من التاريخ

ولا تقف المُبَشِّرات بانتصار الإسلام عند النصوص القرآنيَّة والحديثيَّة المتوافرة، والَّتي تملأ القلب يقينًا بأنَّ الغد لهذا الدِّين العظيم. بل إنَّنا نجد في وقائع التاريخ وأحداث الماضي: ما يعمر قلوبنا بالثقة والأمل في مستقبله، برغم ما يقف في سبيله اليوم من عقبات، وما يعوق صحوته من عوائقَ هائلة، بعضها من صنع أعدائه في الخارج، وأخرى من صُنْع خصومه في الداخل، وأعجب شيء أن يكون هؤلاء الخصوم أو أكثرهم ممَّن يحملون اسم الإسلام، ولكنَّهم ـ في الحقيقة ـ قد انضمُّوا إلى صفوف محاربيه، فلا يريدون للشريعة أن تحكم، ولا لقَيِّمِه أن تسود، ولا لكلمته أن تكون هي العليا.

حقيقتان كبيرتان من التاريخ:

وحسْبنا من مُبَشِّرات التاريخ عامَّة، وتاريخنا خاصَّة ـ الَّذي يبدأ بسِيرة النبيِّ ﷺ ـ حقيقتان كبيرتان في غاية الأهميَّة في موضوعنا الَّذي نبحثه.

نزول النصر أحوج ما نكون إليه:

الحقيقة الأولى: أنَّ النصر لا يأتي من عند الله إلَّا عندما يكون النَّاس أحوج شيء إليه، وعندما يبرأ النَّاس من حولهم وقوَّتهم، ويلوذون بحوْل

QaradawiBooks.com

الله تعالى وقُوَّته، وعندما تغلق الأبواب في وجوههم إلَّا بابه، وتنقطع الأسباب دونهم إلَّا أسبابه، هناك يدعون دعاء المُضْطَرِّين، ويلجؤون إليه لجوء المفتقرين. وهو سبحانه يُجِيب المضطر إذا دعاه، ولا يخيب من افتقر إليه ورجاه.

رأينا ذلك في هجرة النبيِّ ﷺ، وقد لجأ إلى الغار، فاختفى فيه هو وصاحبه أبو بكر، وقد بحث المشركون عنهما حتَّى وصلوا إلى باب الغار، وقال أبو بكر مشفقًا على صاحبه وعلى دعوته: يا رسول الله، لو نظر أحدُهم تحت قدميه لرآنا! فقال له الرسول ﷺ: «**ما ظَنُّكَ يا أبا بَكْرٍ باثنين الله ثالثهما؟**»[1].

وقد قصَّ علينا القرآن كيف نصر الله رسوله في ذلك اليوم، وبأي جند نصره. يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ورأينا ذلك النصر في يوم بدر، وقد كان المسلمون أقلَّ من المشركين عددًا (كانوا أقلَّ من ثلثهم) وأضعف عُدَّة (كان مع المسلمين فرسان، ومع المشركين مائة فرس) وأضعف استعدادًا، ولم يتهيَّؤوا للحرب من الناحية النفسيَّة، فقد خرجوا من بيوتهم للعير لا للنفير، فلم يكن القتال في نيتهم، وفي هذا يقول القرآن:

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١)، عن أبي بكر.

QaradawiBooks.com

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۞ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥، ٦].

ومع هذا كان النصر للمؤمنين، حين استغاثوا بالله فأغاثهم: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]، وكان الرسولُ ﷺ يدعو ربَّه في ذلك اليوم، ويُلِحُّ في الدعاء يقول: «**اللهمَّ أنجزْ لي ما وَعَدْت، اللهمَّ إنْ تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض بعد اليوم**»[(١)]! وما زال يدعو حتَّى سقط الرداء عن منكبيه، وأبو بكر يقول له: والله يا رسولَ الله ليَنْصُرَنَّكَ الله، وليُبَيِّضَنَّ وجهك[(٢)]!

لقد كانت يد الله الواحد القهار هي الَّتي تدير المعركة من فوق سبع سماوات، هو الَّذي رتَّبها، وهيَّأ مكانها وزمانها: ﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

كانت يد القدر الأعلى وراء يد النبي ﷺ حين رمى بحفنة من الرمل في وجوه القوم، وكانت وراء أيدي المؤمنين، وهي تقتل المشركين كما قال تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ ﴾ [الأنفال: ١٧].

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣)، وأحمد (٢٠٨)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١١٦/٥)، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، نشر دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

ومن هنا امتنَّ الله على رسوله وعلى المؤمنين بنصرهم في بدر، فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ورأينا ذلك النصر في يوم الخندق، وقد اشتدَّ الكرب على المسلمين، حين غزاهم المشركون في عقر دارهم، وحاصروهم حصارًا شديدًا، وحفروا الخندق ليحميهم من هجومهم، وغدر بهم اليهود وانضمُّوا إلى المهاجمين. وقد وصف القرآن حال المسلمين المادِّيَّة والنفسيَّة في هذا الوقت العصيب فقال: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وقد كشف المنافقون عن أقنعتهم، وقال منهم ما قال: ممَّا سجَّله عليهم القرآن: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣].

في هذه المحنة الخانقة، وفي تلك الظروف الحالكة، جاء نصر الله تعالى، كما قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

وقال أيضًا: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وفي غزوة حُنَيْن، كان المسلمون جيشًا كبيرًا، وقد فتحوا مكَّة، وانتصروا على قريش فغرَّتْهم كثرتهم، واعتزُّوا بعددهم، فلقَّنهم الله درسًا

QaradawiBooks.com

بليغًا حتَّى يفيقوا، ويعلموا أنَّ النصر من عند الله، ومن لم ينصره الله فهو مغلوب، ومن نصره الله فلن يغلب أبدًا.

يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

وهكذا نجد أنَّ نصر الله تعالى ينزل على عباده المؤمنين، حين تضيق بهم الحيل وتخذلهم أسباب الأرض، فيمدون أكفَّهم إلى السماء.

وهذا أمر ثابت في تاريخ الرسالات كلها، وفي تاريخ الرسل جميعًا، كما بيَّن ذلك القرآن في قوله في أواخر سورة يوسف: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠].

قوة الأمَّة عند الشدائد:

الحقيقة الثانية: الَّتي عرفناها من تاريخنا: هي المخزون النفسي والرُّوحي الكبير، الَّذي تدَّخره الأُمَّة، ولا يبرز إلَّا في المحن والخطوب.

إنَّ التاريخ يحدثنا أنَّ في الإسلام «قوَّة ذاتيَّة» مخبوءة، لا تبرز إلَّا عند حلول الشدائد بساحته، وإحاطة المحن بأمته. فهناك نراه أصلب ما يكون عودًا، وأعظم ما يكون صمودًا، وأشد ما يكون قوَّة، وأقدر ما يكون على تفجير الطاقات المكنونة لأمته، وإبراز ما خبئ من قوته

QaradawiBooks.com

وقدرته، فإذا هو يقاوم فيصمد، بـــل يغالب فيَغْلب، وإذا الضعف الظاهر الَّذي أطمع النَّاس قد استحال إلى قوَّة، بل إلى قوَّة قاهرة منتصرة.

رأينا ذلك في فجر تاريخ الإسلام: في يوم بدر، حيث انتصرت القلة على الكثرة، والضعف المادي على القوَّة، وامتن الله على المؤمنين بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

أ ـ في حروب الردَّة:

ورأينا ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ، وقد ارتدَّت قبائل العرب ـ فيما عدا المدينة ومكة والطائف ـ وظهر أدعياء النبوَّة الكذبة من كهنة العرب، وتبعهم قبائلهم عصبيَّة لهم، على حدِّ قولهم: كذَّاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضَر[(١)]! فكان مُسَيْلمة وسَجَاحُ والأسود العَنسي وطُلَيْحة الأسدي، وغيرهم، وانضمَّ إليهم مانعو الـــزكاة، الَّذين أقـــروا بالصلاة ولم يقروا بالزكاة، وكانت فتنة عارمة، ومحنة قاسية، جعلت بعض الصحابة يقول لأبي بكر: يا خليفة رســـول الله؛ لا طاقة لك بحرب العرب جميعًا، الزم بيتك، وأغلق بابك، واعبد ربك، حتَّى يأتيَك اليقين[(٢)]!

ولكن أبا بكر الرجل الرقيق البكَّاء أبى أنْ يستسلم، وثبت كالطود، وزأر كالليث، وجهز أحد عشر جيشًـــا لحرب المرتدين ومانعي الزكاة،

(١) قاله طلحة النمري، وقد قُتل مع مسيلمة يوم عُقْرَباء كافرًا. انظر: الكامل في التاريخ (٢١٦/٢)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٢) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (١٦٨٣٨) للإسماعيلي.

QaradawiBooks.com

ولما ناقشه عمر في مقاتلة مانعي الزكاة. وقد قال النبي ﷺ: «**أُمرت أنْ أقاتل النَّاس حتَّى يقولوا: لا إلٰه إلَّا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلَّا بحقها وحسابهم على الله**»(١). وهنا قال أبو بكر في يقين وقوَّة: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة: فإنَّ الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَنَاقًا (عَنْزة صغيرة)(٢) ـ وفي رواية: عِقالاً(٣) ـ كانوا يؤدُّونه لرسول الله لقاتلتهم عليه.

وقامت معارك بين الصحابة ـ على قِلَّتهم ـ وبين المرتدِّين ومانعي الزكاة على كثرتهم ـ انتهت بانتصار المؤمنين على المارقين الَّذين رجعوا إلى حظيرة الإسلام تائبين مستغفرين، مُكَفِّرين عن ردتهم بالانضمام إلى صفوف المجاهدين في قتال فارس والروم. وكانوا من أعظم النَّاس بلاء فيه، يعوضون عمَّا بدر منهم في حق الإسلام.

وعادت جزيرة العرب حصنًا ومعقلًا للإسلام، على امتداد القرون.

ب ـ في الحروب الصليبيَّة:

وظهرت القوَّة الكامنة في الإسلام مرة أخرى، حين زحف عليه الغرب المسيحي بقضه وقضيضه، وثالوثه وصليبه، في تسع حملات شهيرة عرفت باسم «الحملات الصليبيَّة».

جاء الغرب الصليبي الزاحف يحمل في صدره حقدًا أسود على الإسلام وأهله، وطمعًا في خيرات بلاده، وأملًا في تحطيم قوَّته وميراث

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٢٩٤٦)، ومسلم في الإيمان (٢١)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٤٥٦).
(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠).

QaradawiBooks.com

ملكه، ساعده على ذلك غفلة المسلمين، وغرق حكامهم في الشهوات. وتفرقهم من أجل الدنيا، وحرصهم على الإمارة، واستعداد هؤلاء الأمراء التافهين أنْ يبيع أحدهم أخاه ويشتري الدخيل الغريب، وأنْ يبيع أمَّته ويشتري إمارته.

فلا غرو أنْ ينتصر الصليبيُّون في أول الأمر، وأنْ يقيموا لهم ممالك وإمارات في ديار الإسلام، بالتعاون مع الخونة من الأمراء، وأن يدخلوا بيت المقدس، بعد مذبحة قتل فيها عشرات الألوف، وجرت الدماء للركب.

وبقي الصليبيون في الشام نحو مائتي عام، وبقي بيت المقدس في أيديهم تسعين سنة كاملة.

ثمَّ هيَّأ الله للإسلام رجالًا صمَّموا على أنْ يقاوموا العدوان، وأنْ يستردوا الأرض المغتصبة، ويستعيدوا الحق السليب، فكان عماد الدين زنكي، وابنه البطل نور الدين محمود الشهيد، الَّذي كان يشبَّه بالخلفاء الراشدين في سيرته وشجاعته والتزامه وعدله، وتلميذه القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي، الَّذي كتب الله له النصر على الصليبيين في معركة «حطين» الشهيرة. وفي معركة فتح بيت المقدس، وإعادته إلى أمَّة الإسلام، وكانت بعد ذلك معارك في مصر، انتهت بأسر لويس التاسع في «دار ابن لقمان» بالمنصورة.

وكل هذا دليل على أنَّ الأمَّة الإسلاميَّة قد تنام، وقد تمرض، ولكنها لا تموت، ما دام يجري في عروق أبنائها دم العقيدة، وما دام فيها من يقودها بـ «لا إلٰه إلَّا الله، مُحمَّد رسول الله».

QaradawiBooks.com

جـ ـ في حروب التتار:

وكما تعرض الإسلام للغزو من الغرب على أيدي الصليبيين الأوربيين النصارى، تعرَّض للغزو من الشرق على أيدي التتار الوثنيين، الَّذين هجموا على بلاد الإسلام كالريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلَّا جعلته كالرميم.

وقد ظهروا والمسلمون ضعفاء متفرقون، ليس لهم قيادة قويَّة تجمع صفوفهم، ولا نهضة إيمانيَّة توقظ شعوبهم، والتتار كانوا في ذلك الزمن قوَّة عسكريَّة عاتية، لها قيادة مهيبة مطاعة، لا يقف في وجوههم أولئك الملوك الممزقون، والأمراء المفرقون، والولاة المترفون، فسقطت البلاد في أيديهم بلدًا بلدًا، وفرَّ الأمراء من أمامهم ـ أو خضعوا لهم ـ أميرًا أميرًا، والنصر يغري بالنصر، والظفر يدفع إلى الظفر، حتَّى كان المثل السائر في ذلك الزمان: إذا قيل لك إنَّ التتار قد انهزموا فلا تصدق! إنَّها أسطورة «القوة الَّتي لا تقهر» تتكرر ما بين عصر وآخر.

وأخيرًا زحفوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد دار السلام، وأرقى بلاد الإسلام، فسقطت تحت ضرباتهم وبمعونة من خان ممَّن ينتسبون إلى الإسلام، وسالت الدماء أنهارًا، واسودَّ نهر دجلة من كثرة ما ألقي فيه من كتب الحضارة، الَّتي سال مدادها، حتَّى أحالت ماء النهر أسود حالكًا.

ولم تكد تمضي سنوات، حتَّى تحقَّقت معجزة الإسلام مرتين؛ انتصر الإسلام على التتار عسكريًّا، في معركة من معارك التاريخ الحاسمة، وهي معركة «عين جالوت» بقيادة القائد المملوكي الصالح سيف الدين قطز، الَّذي حقَّق الله على يده النصر، ومعه جنود مصر، في يوم من أيام الله في الخامس والعشرين من رمضان سنة (٦٥٨هـ)، أي بعد سقوط بغداد بسنتين فقط.

QaradawiBooks.com

وانتصر الإسلام مرة أخرى معنويًّا، فإذا هؤلاء الجبابرة الَّذين غزوا الإسلام يغزوهم الإسلام، وإذا سيف الغازي المصلت يسقط أمام تأثير العقيدة الإسلاميَّة العزلاء، وإذا الغالبون يدخلون أخيرًا في دين المغلوبين! على خلاف ما هو معروف ومألوف، وهو ما قرَّره ابن خلدون أنَّ المغلوب هو المولع دائمًا بتقليد الغالب المنصور[1].

د ـ حروب التحرير في العصر الحديث:

وفي العصر الحديث، رأينا الجهاد البطولي، ضد الغزاة المستعمرين، في سائر ديار الإسلام: جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ضد الفرنسيين في الجزائر، والأمير عبد الكريم الخطابي ضد الإسبان في المغرب، والبطل عمر المختار ضد الطليان في ليبيا، والشيخ عز الدين القسام ضد الإنجليز واليهود في فلسطين، مرورًا بثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، ومعارك فلسطين ضد الصهاينة، والقناة ضد الإنجليز.

كما اعترف المؤرخون الغربيون أنفسهم ـ أمثال برنارد لويس في كتابه «الغرب والشرق الأوسط» ـ أنَّ الحركات الدينيَّة كانت هي قائدة معارك التحرير في سائر البلاد الإسلاميَّة ضد الاستعمار، حتَّى حركة كمال أتاتورك نفسها، ولكن المؤسف أنَّ الإسلاميين يزرعون، والعلمانيين هم الَّذين يحصدون، إنهم لصوص مدربون على سرقة ثمار الجهاد وثورات المجاهدين!

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ١٥٦، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

٤

مُبَشِّرات من الواقع

وإذا تركنا التاريخ وما يحمله من مُبَشِّـرات بالقوة الذاتيَّة للإسلام، والقوى المكنونة في كيان هذه الأمَّة، والَّتي تبرز عند الشـدائد، وعندما يوجد من يفجرهـا... ونظرنا إلى واقـع الأمَّة في هـذا العصر، وجدنا مبشـرات أخرى كثيرة، جعلت هـذه الأمَّة تثبت في وجـه الأعاصير، ولا تذوب في غيرها، كما يذوب الملح في الماء، كما كان يراد لها، بل جاهدت وقاتلت حتَّى تحرَّرت من مستعمريها، وعادت تشعر بكينونتها، وتكتشف ذاتها من جديد، رغم ما وضع لها من أغلال تكبِّلها، وما صنع لها من أقفاص حديديَّة أو ذهبيَّة تحبس داخلها.

أمراض الواقع وآفاته:

لا أستطيع أن أجحد ما يمور به واقع الأمَّة من أمراض وآفات عقليَّة ودينيَّـة وخُلُقيَّة وعمليَّة، شـكا منها الدعـاة والمُرَبُّـون والمصلحون، ولا يزالون يشكون.

فقد ضعف الدِّين بين الغالي فيه والجافي عنه، كما قال الإمام الحسن البَصْري[1]، أو بين «جامد وجاحد»، كما قال أمير البيان شكيب أرسلان. ذاك يصدُّ النَّاس عن الإسلام بجموده، والآخر يفتنهم عنه بجحوده.

(١) انظر: سنن الدارمي (٢٢٢).

نسخة تجريبية

وضعف التوحيد الأصيل ـ الَّذي هو جوهر الإسلام وروح الوجود الإسلامي كله ـ بين خرافات العرَّافين، وأباطيل الدجَّالين، وبين شرك العوامِّ الَّذين يكادون يعبدون قبور الأموات، وشرك الخواصِّ الَّذين يكادون يعبدون قصور الأحياء!

وضعف الجانب الربَّاني في الحياة الإسلاميَّة، حين وجدنا في المسلمين من يضيع الصلوات، ويتَّبع الشهوات، والله ﷻ يقول في كتابه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٩].

وظهر التصوُّف المنحرف، والتصوُّف المحترف، وقلَّ التصوُّف الحقيقي المُعَبِّر عن رُوحانية الإسلام ووسطيَّته، والَّذي عرَّفوه بأنَّه: الصدق مع الحقِّ، والخُلُق مع الخَلق. وغلبت «رسوم» التصوُّف على «حقائقه» من ذِكْر باللسان من نوع ما قالت رابعة: استغفار يحتاج إلى استغفار منه[1]. ومن أوراد موضوعة، وحركات مصنوعة، لا ترقِّق القلب، ولا تذكر بالربِّ، ولا بالدار الآخرة.

وضعفت الآداب والتقاليد الإسلاميَّة الأصيلة في حياتنا الاجتماعيَّة، وغلب على الكثيرين نوعان من التقاليد المخالفة لحقائق الإسلام: تقاليد موروثة من رواسب عصور الجمود والتقليد والتخلف، أُلصقت بالإسلام، وليست منه في كثير ولا قليل، وتقاليد وافدة، جاءت بها

(١) إحياء علوم الدين (٣١٣/١)، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

الحضـــارة الغربية الغازية، بمـــا غلب عليها من مادية الفكـــر، وعلمانيَّة التوجُّه، ونفعية الســـلوك، كان لها أثرها في إشـــاعة التحلل، وترســـيخ الفردية والأنانية.

وأبرز ما رأينا ذلك في «قضية المرأة» فوجدنا من تغطي وجهها حتَّى لا يرى منه شيء، وقد تسمح ـ أو يسمح لها ـ بظهور عينيها أو إحداهما! ومن تخرج إلـــى الطريق مكشـــوفة الذراعيـــن والســـاقين والنحر، من «الكاســـيات العاريات المميلات المائلات». ووجدنا من يحرم الخاطب من رؤية مخطوبته ـ وهو مأمور بها شرعًا ـ ولا يراها إلَّا ليلة زفافه بها، وهي تحرم من رؤيته كذلك... ومن يُترك له الحبل على الغارب، ليتأبَّط ذراعهـــا، ويذهـــب بها إلى حيث يشـــاء في المســـارح والســـينمات أو المتنزَّهات والخلوات!

وضعف العقل الإســـلامي، فلم يعد يفكر ويبتكر، ويضيف الجديد إلى الحضارة، ويعدل القديم منها، بل غدا عالة على غيره، ســـواء كان هذا الغير «المُقَدِّسين في التراث» أم كان «المُقَدِّسين في الغرب». وطغى الجمود والتحجُّر على جنبات الحياة، فغاب النظر في العقيدة، والاجتهاد في الفقه، والإبداع في الأدب، والابتكار فـــي الصناعة، وذاعت كلمتان خطيرتان كان لهما تأثيرهما في الحياة العقليَّة الإسلاميَّة، الأولى: ما ترك الأول للآخر شيئًا! والثانية: ليس في الإمكان أبدع ممَّا كان!

وانتشـــرت دعوى إغلاق باب الاجتهاد! ولا يدري: من أغلقه؟ ومن يملك إغلاق باب فتحه الله تعالى ورسوله ﷺ!

ومن هنا تأخَّرت الأمَّة الإسلاميَّة، الَّتي كانت الأمَّة الأولى ما يقارب الألف عام، وأضحت في مُؤَخَّرة القافلة بعد أن كانت في مقدِّمتها، فكلُّ

QaradawiBooks.com

أقطارها داخل في مسمَّى «البلاد النامية» أو «العالم الثالث»، وبعضها لو كان هناك عالم رابع لنسبوا إليه؛ لما يعانون من شدَّة التخلُّف والفقر والمرض والجهل والأُمِّيَّة.

وضعف الخلق الإسلامي الأصيل، بغياب «شُعب الإيمان» الَّتي بيَّن لنا الرسول الكريم أنَّها بضع وسبعون شعبة أعلاها: «**لا إله إلَّا الله، وأدناها: إماطة الأذى من الطريق، والحياء شُعْبة من الإيمان**»[(١)]، وشاعت أخلاق النفاق في مجتمعاتنا، فوجدنا من «**إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[(٢)]. وانتشر الترف المدمِّر في طبقة عاطلة يُسِّر لها كل شيء، والبؤس القاتل في طبقات كادحة تتعب وتلهث، ولا تكاد تجد شيئًا، وانقلبت القيم الاجتماعيَّة الإسلاميَّة بظهور الغنى بغير جهد، وظهور ملوك البترول، ولصوص الانفتاح، وأصبحت الصورة الكاريكاتورية للمسلم: عربي في خيمة، وبجواره بئر بترول، وفتاة جميلة!

وكثر الظلم في العالم الإسلامي: ظلم الحُكَّام المحكومينَ، وظلم الأغنياء الفقراءَ، وظلم الأقوياء الضعفاءَ، وظلم أربابُ العمل العُمَّالَ، وظلم الرجال النَّسَاءَ، والظلم لا تقوم عليه دولة، ولا تنهض به أمَّة.

وضعفت الشورى ـ بل ربَّما غابت تمامًا ـ في حياة المسلمين السياسية، وحكم النَّاس فرعون وهامان وقارون، بالحديد والنار تارة، وبالغش والتزوير طورًا، ولم يعد أئمَّة المسلمين خيارهم

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

«**الَّذيــن تُحِبُّونهم ويُحِبُّونكــم، وتُصَلُّون عليهم** (أي تدعــون لهم) **ويصلون عليكم**»[١]، بل كل متكبِّر جبَّــار، مطبوع على قلبه، لا يخــاف الله ولا يرحم الناس، وبعضهم مطبوع علــى عقله كذلك، فلا هو يفقه فــي الدين، ولا هو يعقل في الدنيا، ومع هذا إذا استفتي النَّاس في اختياره حصل على «التسعات» الأربع أو الخمس (٩٩,٩٩٩٪) الَّتي أمست مثار سخرية العالم، وبات الحاكم في البلاد العربيَّة لا ينزعه عن كرسيِّه إلَّا الموت أو الاغتيال أو الانقلاب عليه!

الواقع المريض لا يستمرُّ:

ولكن هذا الواقع الَّذي لا ينكر، لم يُترك يؤثّر في المســلمين دون مقاومة، فهذا مناف لطبيعة الحياة الإسلاميَّة، وطبيعة الرسالة الإسلاميَّة، وطبيعة الأمَّة الإسلاميَّة، الَّتي لا تجتمع على ضلالة، ولا تزال فيها طائفة قائمة على أمر الله، ممَّن يهدون بالحــق وبه يعدلون. ولا يزال يبعث الله فيها أو يبعث لها ما بين قــرن وآخر من يجدِّد لها دِينَهــا. وهو ما أثبته التاريخ المقروء، كما أثبته الواقع المُسْتَقْرَأ.

بين الأمس واليوم:

ومن قــارن بين حال الأمَّة منــذ قرن مضى، وحالهــا اليوم، بل من استقرأ حالها منذ خمسين ســنة، أو ثلاثين سنة، وتأمَّل حالها في هذين العقدين من الزمان، ســيجد أن أوضاعها تغيرت ـ إلــى حد كبير ـ إلى ما هو أحســن وأمثل. وهــذا أمر يلاحظه ويشــهد به كلُّ مراقــبٍ يَقِظ للأحداث، في كلِّ جانب من جوانب الحيــاة، وعلى مختلف الأصعدة والمستويات: الفكريَّة، والأخلاقيَّة، والسُّلوكيَّة.

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٥)، وأحمد (٢٣٩٨١)، عن عوف بن مالك.

QaradawiBooks.com

وأكتفي هنا بشهادة رجلٍ غربيٍّ مُثقَّف، اهتدى إلى الإسلام عن بصيرة، وآمن به عن بيِّنة، وهو الدكتور: مراد هوفمان، صاحب كتاب «الإسلام كبديل»، وإنَّما آثرتُ شهادتَه؛ لأنَّه رجلٌ واسع المعرفة، يعرف الألمانيَّة ـ لغته الأصليَّة ـ والإنجليزيَّة والفرنسيَّة، وعمل سفيرا لبلاده ألمانيا في الجزائر والمغرب، ويتميَّز بنظرته «الواقعيَّة»، ونزعته «النقديَّة»، حتَّى قال عن واقعيَّته: إنَّها الواقعيَّة القاسية. وقال عن نقده: اضطررتُ لأن أكون ناقدًا شديدًا لكلٍّ من الغرب والعالم الإسلامي.

يقول هوفمان في كتابه «الإسلام عام ٢٠٠٠» وفي فصله الثاني تحت عنوان «قليل من التفاؤل»:

١ ـ قد يكون من المفيد أن نفحص العالم كما هو الآن، فماذا نرى إذا فركنا أعيننا قليلًا؟ هل يَتَقَدَّم الإسلام حقيقة؟ أم أنَّه إذا تركنا المظاهر ينحدر؟ أو أنَّ المسلمين يتردَّدون على حوافِّ التاريخ، فريسة سهلة للاستعمار المادِّي والعقلي، كما هو حالهم لعدَّة قرون؟

دعونا هذه المرَّة نسمع من المتفائل أوَّلًا:

٢ ـ يجب على المرء أنْ يعرف كيف كانت الحال بمكَّة والمدينة في القرن السابق، ليتعرَّف على التقدُّم الحادث. لدينا أوصافٌ يعتمد عليها من الحُجَّاج الغربيِّين أمثال: المسلم السويسري بروكارت الَّذي عاش في مكَّة والمدينة ستَّة أشهر في ١٨١٤/١٨١٥م[1]، وقد أيَّد رواية بروكارت كلٌّ من المسلم البريطاني سير ريتشارد بيرتون الَّذي زار مكَّة والمدينة

(١) مكة والمدينة ل. جوهان لودفيج بروكارت، برلين (١٩٩٤م).

QaradawiBooks.com

في ١٨٥٣م[١]، والألماني غير المسلم هيترش فون مالتزان الَّذي عاش في مكَّة في ١٨٦٠م[٢].

اتَّفق المُؤَلِّفون الثلاثة على تدهور حالة الأماكن المقدَّسة... القذارة، انعدام الأمن، انتشار الخرافات... وصدِّق أو لا تُصَدِّق... شرب الخمر والدعارة حول الحرم... بل وحتَّى داخله أحيانًا!

لم تقم الصلاة بانتظام، حتَّى بين الحُجَّاج، الَّذي هبط عددهم إلى ٧٠,٠٠٠ عام ١٨١٤م (حسب تقدير بروكارت) ثمَّ إلى (٣٠,٠٠٠) عام ١٨٦٠م (حسب تقدير مالتزان).

وفي الحقيقة، بعد غزو نابليون لمصر، وبعد الانهيار والتمزُّق المتتالي للإمبراطورية العُثمانيَّة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تنبَّأ الكثير من السياسيِّين والمستشرقين باختفاء الإسلام تمامًا، وفي غضون حياتهم! فدرسوا الإسلام كحضارة على وَشْك الاندثار، عليهم أن يُسَجِّلوها لأجيال المستقبل. وبهذه الرُّوح استطاع المُسْتَعْمِرون الفرنسيُّون تقدير عبد القادر[٣]، البطل الجزائري، الصُّوفي، رجل الدولة، كشخصيَّة فلكلورية غريبة، ذات قليل من الإزعاج، حتَّى الشخصيَّات الَّتي تعاطفت مع الإسلام ـ جوته (١٨٣٢) على سبيل المثال ـ أعجبه تشدُّد الإسلام في وحدانيَّة الله، وليس الإسلام كما يعيشه العالم الإسلامي[٤].

(١) حكايات شخصية لحاج بالمدينة ومكة لريتشارد بيرتون، نيويورك (١٩٦٤م).
(٢) حجي لمكة لهيترش فون مالتزان، توينجن (١٩٨٢م).
(٣) عبد القادر ل. برونو إينه (١٩٩٤م).
(٤) الإسلام وجوته لأحمد ثون دنفر، ميونيخ، ط ٣، ١٩٩٠، ١٩٩٤م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٣ ـ من يحـــجُّ أو يعتمر اليوم، يجـــد التقدُّم هائلًا عـــن حالة القرن الماضي، فقد تمَّ توســـيع الحرم المَكِّي والحرم المدني بجمالٍ واقتدارٍ ليسعا ٤٨٠,٠٠٠، ٦٥٠,٠٠٠ حاج، وما زالا صغيرين أمام الزيادة الهائلة لمن يريدون الحـــجَّ، والَّذين يحجُّون الآن طبقًا لحصـــص محدَّدة لكلِّ دولة لا تتعدَّاها، منعت الكحوليَّات، الســـرقات قليلة، النساء لا يدخلن البلاد منفردات، والصلاة على مدار الساعة أمام أنظار العالم.

٤ ـ اختلف موقف المستشرقين من الإســـلام، منذ عشرينات القرن الحالي، وكان ذلـــك بداية لتغييرات أخـــرى إيجابيَّة، فلم تعد دراســـة الإســـلام على طريقة لورنس العرب لصالح الإمبرياليَّـــة البريطانيَّة، بل تولته نخبة من الأكاديميِّين الأوروبيِّين، منهـــم رينيه جينو (عبد الواحد يحيى)، مارتن لنج، تيتوس بروكاردت، وليوبولد فايس (محمد أســـد). ومن بين المستشرقين الَّذين لم يعلنوا إسلامهم، هناك جاك بيرك، لويس مانيون، ودنيس ماسون، آنامار ياشْمل، الَّذين بَدَوا على وَشْك الشهادة.

وكثير من زملائهم المستشـــرقين، تحلَّوا في دراستهم الإسلام برُوح التعاطف والاعتناق بدلًا من الاشمئزاز والضيق.

وفي نفس الوقت، منذ الثلاثينات، وضعت حركات إحياء الإســـلام من القاعدة في معظم البلاد الإســـلاميَّة الإســـلامَ في الأجندة السياسية للبلد، ونموذج لذلك حركة الإخوان المسلمين الَّتي أسَّسها حسن البنَّا[1] في مصـــر، ودعاتها من أمثال ســـيِّد قطـــب (١٩٦٦م)، ومُحَمَّـــد الغزالي (١٩٩٦م)، كذلك أبو الأعلى المودودي (١٩٧٩م).

(١) رسائل حسن البنا لبيركلي، لوس أنجلوس، ١٩٧٨م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لم يجئ الإحياء من القاعدة فقط، فالحركة الوهَّابيَّة والحركة السنوسيَّة، وإلى حدٍّ ما حركة مُحمَّد عبده، جاءت من أعلى، وانتشرت بفضل الإمكانيَّات المادِّيَّة، ومن أغنى أغنياء العالم اليوم سلطان بروناي، والملك فهد، والأمير زايد، ممَّا يعطي الدعوة الإسلاميَّة ثراء فعَّالًا. فكر ـ على سبيل المثال ـ في ملايين النسخ من القرآن الكريم الَّتي تُوَزَّع مجانًا، كذلك في مجمع فهد لطباعة وتوزيع الكتب الإسلاميَّة في المدينة.

والخلاصة أنَّ ذلك التطوير، نُظر إليه كتهديد أصولي، ممَّا جعل الإسلام يحتلُّ القمة في ما يشغل الإعلام العالمي في الربع الأخير من القرن الحالي[١].

٥ ـ لا يتوقَّع اليوم أحد أنْ يختفي الإسلام، ولكن أنْ يمتدَّ، بل وينفجر! ويضع جنرالات الناتو في حسبانهم أنَّ أكثر المواجهات العسكريَّة احتمالًا في المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب، ولكن بين الشمال والجنوب، فالإسلام هو العدو المتنامي المرتقب.

وقد أصبح تعداد المسلمين في كلٍّ من ألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بالملايين. وتقدر الإحصاءات الغربية إجمالي عدد المسلمين في العالم بـ ٩٩٠,٥٤٧ مليون ـ وهو رقم متحفظ ـ يسببون الخوف والهلع[٢].

(١) أي القرن الميلادي العشرون.

(٢) انظر مقال عدد المسلمين في العالم للدكتور ل. دورية، هامبورج، فبراير (١٩٩١م).
قلت: والمعروف أنَّ المسلمين في العالم اليوم أكثر من مليار وربع. ولكن إحصاءات الغربيين أبدًا تحاول التقليل من عدد المسلمين لأسباب لا تخفى على اللبيب.

QaradawiBooks.com

تنتشر المساجد في العالم كله بين لوس أنجلوس، روما، زغرب، حتَّى موسكو وبكين، وفي قرطبة الحاضرة القديمة للخلافة الأُمَوِيَّة في الأندلس، أسَّس المسلمون في (١٩٩٤م) الجامعة الإسلاميَّة الدوليَّة (آفيروس) وليس بعيدًا عن الجامع القديم الرائع في قرطبة يرفع الأذان ثانيًا للصلاة، يا لها من إثارة أن يحدث هذا بعد خمسمائة سنة من طرد آخر مسلم من الأندلس!

٦ ـ في التوقعات المستقبليَّة المذهلة لمحمد أسد (١٩٩٢/١٤١٢) في كتابه الهائل المشهور «الإسلام في مفترق الطرق» ـ الَّذي كتبه في دلهي عام ١٩٣٤ ـ تكلم عن صعود الإسلام مقابل انحطاط الحضارة الغربية المادِّيَّة الَّتي تشمل الاتِّحاد السوفيتي، وبمنهاج مخالف لمنهاج السلفيِّين الاعتذاري والتبريري أمام الغرب، بيَّن أنَّ الإسلام منهاج شامل كامل ناجح للحياة.

رأى أسد الحرب العالميَّة الثانية كصراع لا مفرَّ منه بين القوى المادِّيَّة في الحضارة الغربية.

توقَّع أسد أن يجلب التناحر على المادَّة الكوارث على المعسكرين الغربي والشرقي، ويحطُّ بالحضارة الغربية المادِّيَّة ـ المملوءة زهوًا بالنفس ـ حتَّى يتطلَّع الغرب ـ مرة ثانية ـ إلى الحقيقة الرُّوحيَّة (وتصبح الدعوة الناجحة للإسلام ممكنة) والتأكيد هنا من عندي.

بدت تلك الرؤيا غير دقيقة لمدَّة ستين عامًا، فبعد الحرب العالميَّة الثانية، بدلًا من أن ينهار الغرب، انقسم إلى معسكرين، ظهر أنهما يوازنان بعضهما البعض لعصور قادمة.

QaradawiBooks.com

واليوم، بعد إفلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ (١٩٩٠م)، وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية في الغرب، تمر المسيحيَّة بتغيير في المشروع، وما كان يسمى «مشروع التحديث» يتساقط أمام أعيننا.

بدأ مُنَظِّرو وعلماء الغرب يشكِّكون إذا كانت افتراضاتهم الأساسيَّة صحيحة[١] اهـ.

استمرار حركة الإحياء والتجديد:

إنَّ من خصائص الإسلام: أنَّ حركة الإحياء والتجديد فيه من الداخل مستمرة، ولا تنقطع حتَّى تقوم الساعة، بوساطة «الوُرَّاث الحقيقيين» لعلم النبوَّة، الَّذين يقدمونه للناس خالصًا غير مشوب، متكاملًا غير مجزأ، بيّنًا غير غامض «**ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين**»[٢].

ولا غرو أن هيَّأ الله لهذا الدين رجالًا يجددونه، ويوقظون أمَّته، ويصنعون أجيالًا على هداه، ولم تضع جهودهم سُدى، ولم تذهب ثمرات البعث الإسلامي، وحركات الإحياء والتجديد، الَّتي لم تكن ـ كما تَوَهَّم بعض النَّاس ـ صيحةً في وادٍ، أو نفخةً في رماد، بل أنشأت

(١) الإسلام عام ٢٠٠٠م لمراد هوفمان صـ ١٥ ـ ١٨، ترجمه عادل المعلم، نشر دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

(٢) رواه ابن وضاح في البدع (١)، والبيهقي في الشهادات (٢٠٩/١٠)، عن إبراهيم بن عبد الرحمٰن العذري. وقوَّاه ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١٦٣/١، ١٦٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، وكذلك العلامة ابن الوزير الذي استظهر صحته أو حسنه، لكثرة طرقه مع ما نقل من تصحيح الإمام أحمد له، والحافظ ابن عبد البر، وترجيح العقيلي لإسناده، مع سعة اطلاعهم وأمانتهم، فهذا يقتضي التمسك به. انظر: الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم لابن الوزير (٣٩/١)، نشر دار عالم الفوائد، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٨).

QaradawiBooks.com

بفضل الله تعالى وتوفيقه، صحوة إسلاميَّة كبرى، في سائر ديار العرب والإسلام، بل حتَّى خارج ديار الإسلام، حيث الأقلِّيَّات والجاليات الإسلاميَّة في الغرب والشَّرق، صحوة أيقظت العقول والقلوب، والعزائم، وأعادت للناس الثقة بالإسلام، والأمل في انتصاره بعد أن ظنَّ من ظنَّ أنَّ راية الإسلام قد سقطت، وأنَّ ظلَّه قد تقلَّص، وأنَّ أمَّته أمست في مؤخرة القافلة وأنَّ العِلمانيَّة قد تغلغلت بين أبنائه.

وزُلزلت القوى المعادية للإسلام زلزالها، فطفقت تكيد للصحوة، تتآمر عليها، وتتَّهمها بما تَبْرَأ منه، وتدعو إلى ضدِّه، مُسْتَغِلَّةً انحرافَ بعض فصائل الصحوة ـ للأسف ـ في الفهم أو في السلوك، لضرب الصحوة كُلِّها، وقطع الطريق عليها، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وإذا كان بعض النَّاس يحاول أنْ يهون من قوَّة التيار الإسلامي، ويُقَلِّل من شأن الصحوة الإسلاميَّة، مهولًا من قوَّة التيار العلماني المعادي للإسلام، وشريعته ومنهجه لقيادة الحياة، فأعتقد أنَّهم مخطئون في تقديراتهم، أو هم يعلمون الحقيقة، ولكنَّهم يتجاهلونها عمدًا لهوى في أنفسهم.

الصحوة الإسلاميَّة وآثارها في الحياة الإسلاميَّة:

لا يستطيع عاقل منصف أن ينكر أثر «الصحوة الإسلاميَّة» في حياتنا المعاصرة، تلك الصحوة الَّتي شرَّقت وغرَّبت، وأضاءت بنورها ديار الإسلام، ثمَّ ذهبت إلى حيث يوجد المسلمون خارج أوطان الإسلام، بين الأقليَّات الكبيرة والصغيرة، والجاليات المنتشرة في أنحاء العالم، وهدى الله بها ملايين الشبَّان والشابَّات.

QaradawiBooks.com

أيقظت هـذه الصحوة العقـول بالوعي، وملأت القلـوب بالإيمان والحماس، ودفعت الإرادات إلى الالتزام والعمل، وأثَّرت على النسـاء كما أثَّرت على الرجال، وغيَّرت من مفاهيم الأجيال الجديدة، فنقلتها من التفكير العلماني إلى التفكير الإسـلامي، ومن الولاء للغرب إلى الولاء لله ولرسـوله، ومن التبعيَّة إلى التحرُّر، فنشأ جيل مسلم ملتزم بالإسلام: عقيدة وشريعة، وفكرًا وسلوكًا، ورسالة وحضارة. رجونا أنْ يكون «جيل النصر المنشود».

أثبتت هذه الصحـوة وجودها علـى الصعيد الفكري بمـا احتوته «المكتبة الإسـلاميَّة» المعاصرة من شـتَّى الدراسـات فـي الجوانب الإسلاميَّة المتعددة، وكان الكتاب الإسلامي هو الأوَّل في سوق التوزيع، وسـجَّلت مئات الأطروحات للماجستير والدكتوراة في مختلف جوانب الثقافة الإسـلاميَّة: في الاقتصاد والسياسـة والقانون والتربية والتاريخ، وشتَّى العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة.

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد السلوكي، فامتلأت المساجد بالمُصَلِّين والمُصَلَّيات، وخصوصًا من الشُّـبَّان، وازدحمت بهم كذلك مواسم الحجِّ والعمرة، وعادت المرأة المُتَبَرِّجة إلى الحجاب طوعًا.

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد الاقتصادي، فنشـأت البنوك الإسلاميَّة والمُؤَسَّسات الماليَّة الإسلاميَّة، وتوسَّعت في أقطار كثيرة من العالم الإسلامي.

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد السياسـي، فأصبح هناك تيار شعبي هائل، ينادي بالعودة إلى الإسلام، وتطبيق شريعة الإسلام، وقامت دولة للإسلام الشِّيعي في إيران، وللإسلام السُّنِّي في السودان، وأوشكت

QaradawiBooks.com

أنْ تقوم دولة في الجزائر، لولا أنْ قطعوا الطريق عليها، وحرموها أنْ تقطف ثمار اختيارها.

وأثبتت الصحوة وجودها على الصعيد الجهادي، فانتصرت في أفغانستان على الاتِّحاد السوفيتي[١]، وفي البوسنة والهرسك على الوحش الصربي، وزلزلت الانتفاضة وأشبالها، والمقاومة الإسلاميَّة ورجالها، الكيان الصهيوني: الدولة الَّتي لا تقهر، والشوكة الَّتي لا تكسر!

هذه الظواهر وغيرها حرَّكت غرائز الشر في القوى المعادية للإسلام وأمَّته وصحوته، فاجتمعت على الكيد له، والمكر به، والتربُّص بصحوته، وقد قال إسحاق رابين[٢] في مؤتمر الدار البيضاء: إنَّ أعداءنا الكونيِّين ثلاثة: الأصوليَّة، والجوع، والمُخَدِّرات! والحقيقة أنَّه ذكر الجوع، والمُخَدِّرات للتغطية وذرِّ الرماد في العيون، وإنَّما قصده الأساسي: الأصوليَّة، وإن شئت الترجمة الحقيقيَّة لها فهي «الصحوة الإسلاميَّة»!

وإذا كُنَّا نعيش في الزمن الإسرائيلي، زمن السامري! وإسرائيل هي الآمر الناهي في المنطقة، وقد عملت بمهارة على «تهويد العقل العربي» وكذلك «تهويد الإعلام العربي» فلا تعجب إذا رأيت الحرب تعلن على الصحوة الإسلاميَّة، والدعوة الإسلاميَّة، والحركة الإسلاميَّة، تحت عناوين شتّى، وكل ذلك لخدمة هدف واحد، هو: بقاء إسرائيل، وسيادة إسرائيل، وتوسُّع إسرائيل، وهيمنة إسرائيل، ولكن الصحوة باقية إنْ شاء الله.

---

(١) ولكن ممَّا يؤسف له: أن إخواننا الأفغان، قد انتصروا على الاتحاد السوفيتي ـ إحدى القوتين الكبريين في العالم ـ ولكنهم لم ينتصروا على أنفسهم! هداهم الله وأصلح ذات بينهم.

(٢) إسحاق رابين: جنرال يهودي رأس الوزارة الإسرائيلية، وأجرى اتّفاق الصلح مع ياسر عرفات والملك حسين. قُتِل على يد شاب يهودي من التكتلات اليهودية المعارضة.

QaradawiBooks.com

التيار الإسلامي أقوى وأرجح في الميزان:

أجل إنَّ الصهيونيَّة ـ وحليفتها الصليبيَّة ـ تُخَطِّطان لضَرْب الإسلام وصحوته، وتمدَّان التيارات المعادية للإسلام بكلِّ أسباب القوَّة والانتشار والنفوذ.

ولكنَّنا إذا تعمَّقنا في تقدير وزن القوى الَّتي لنا والَّتي علينا؛ وجدنا كفَّة التيار الإسلامي ـ بحمد الله ـ أرجح وأثقل في الميزان.

قوَّة الجماهير المؤمنة:

(١) فنحن بالإسلام نملك رصيدًا ضخمًا، لا يمكن أن تملكه دعوة أخرى وافدة من هنا وهناك، إنَّ وراء الإسلام «قوة الجماهير» الغفيرة المؤمنة بربها وقرآنها ومحمَّدها، المتطلعة إلى من يقودها باسم الله، ويضع يدها في يد رسول الله ﷺ وعندئذ تبذل المال عن رضا واغتباط، والروح عن طواعية وارتياح.

إنَّ هذه الأمَّة متدينة بفطرتها، وبتاريخها، والدين هو مفتاح شخصيتها، وصاقل مواهبها، وصانع بطولاتها، وسر انتصاراتها الكبرى، وهي أسرع استجابة إليه، والتفافًا به، من أي دعوة دخيلة جاء بها غاصب، محتل، أو بذر بذورها طامع متربص.

وقد جربنا أثر ذلك في العاشر من رمضان سنة (١٣٩٣هـ) (١٩٧٣/١٠/٦م)، وظهر أثر «الله أكبر» في الميدان.

قوة المنهج:

(ب) ونملك كذلك «قوَّة المنهج» الَّذي ندعو إليه، قوَّة مبادئ الإسلام العظيمة الخالدة، نملك «قوة الإسلام» الَّتي تتمثَّل في وضوحه

QaradawiBooks.com

وشموله، وعمقه، واتِّزانه وتأثيره. الإسلام: عقيدة تخاطب العقل، وعبادة تزكِّي النفس، وأخلاقًا تلائم الفطرة، وأحكامًا تحقِّق التوازن والعدل، وتطارد المفاسد، وتجلب المصالح، وتعطي كل ذي حقٍّ حقَّه، فلا طغيان لفرد على مجتمع، كما هي فلسفة الرأسمالية، ولا لمجتمع على فرد، كما هي فلسفة الماركسية، بل توازن وتكامل، بلا طغيان، ولا إخسار في الميزان.

ومن أبرز معالم القوَّة في هذا الإسلام: أنَّه ليس من وضع البشر، بل هو من تنزيل رب العالمين، وهذا العنصر الإلٰهي فيه جعله يبرأ من الغلو والتقصير، ومن العجز والقصور، الَّذي يصاب به دائمًا كل منهج يضعه البشر لأنفسهم.

وهذه الميزة أيضًا تجعله أدنى إلى القبول والإذعان له من جمهرة الناس؛ لأنَّه انقياد من الإنسان لربه، الَّذي خلقه فسوَّاه، وأمده بنعمته، وغمره برحمته، والَّذي يرجو مثوبته، ويخشى عقابه، على عكس المبادئ الوضعيَّة، الَّتي لا يطيعها الإنسان إلَّا خوفًا أو طمعًا، والَّتي يحاول أنْ يتهرَّب من سلطانها ما استطاع.

ومن أسباب قوَّة الإسلام: أنَّه منهج نابع من أعماق الأمَّة، وليس دخيلًا ولا طارئًا عليها، بحيث تحتاج إلى ضغط مادي، أو معنوي حتَّى تسيغه وترضى بتجرع كأسه.

القوى المكنونة في حنايا الأمَّة:

(جـ) إنَّ هذه القوَّة المذخورة في منهج الإسلام، لا يعادلها إلَّا القوى المكنونة في حنايا أمَّة الإسلام.

QaradawiBooks.com

تلك القوى الَّتي انفجرت يومًا والمسلمون في ضعف وتفرق وخذلان، فحطمت الصليبيين في «حطين»، وهزمت التتار في «عين جالوت»، وأسرت لويس التاسع في «دار ابن لقمان» بالمنصورة...

غير مرخصة للطباعة

القوى الَّتي تملكها الأمة:

إنَّ القوى الَّتي تملكها أمتنا الإسلاميَّة ليست بالهينة ولا اليسيرة، إذا أحسنت توظيفها والاستفادة منها، فهي في الحق قوى كبيرة وهائلة.

١ ـ القوى البشريَّة:

أولى هذه القوى: القوَّة البشريَّة العددية، فأمتنا تملك اليوم من البشر ما يزيد على المليار والربع من المسلمين المؤمنين بعقيدة التوحيد، منتشرين في قارات العالم الست.

صحيح أنَّ العبرة بالكيف لا بالكم، ولكن الكمَّ له أهميَّة أيضًا، وسنرى في تقارير الغربيين كيف يخافون من تزايد أعداد المسلمين، في حين يعانون هم منذ مدة من تناقص النسل عندهم بصورة أصبحت تفزعهم.

إنَّ الكثرة في حدِّ ذاتها نعمة، وهي شرط لا بدَّ منه لأيِّ تفوُّق اقتصادي أو حضاري، ولهذا تسعى الأمم إلى تعويض هذا بالتكتل فيما بينها رغم اختلافها في العروق واللغات والأديان، والتاريخ.

ومن هنا ذكر القرآن في معرض الامتنان والإنعام قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

والشاعر العربي يقول:

وَإِنَّمَا العِزَّة لِلكَاثِرِ[1]!

(١) القائل: الأعشى، كما في الرسائل السياسية للجاحظ صـ ٤٢٧، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت.

QaradawiBooks.com

والشاعر الآخر يقول في مقام الفخر بكثرة قومه:

ملأنا البَـرَّ حتَّى ضـاق عنا ونحن البحرُ نملؤه سَفِينَا[1]!

٢ ـ القوَّة المادِّيَّة والاقتصاديَّة:

وثانية هذه القوى: القـوَّة المادِّيَّـة والاقتصاديَّـة، فأمَّتنا تملك من المعادن والثروات المذخورة في باطن الأرض، والثروات المنشورة على ظاهرها، والثروات المائيَّة والبحريَّة، ما لا تملكه أمة أخرى.

عندنا الأراضـي الخصبـة والسـهول والوديان، وعندنـا الهضاب والجبال، وعندنا البحـار والبحيرات، والأنهار العظـام، وعندنا العيون والآبار، وعندنا مخزون الميـاه الجوفية، وعندنا المعـادن المهمة الَّتي يحتاج إليها العالم، ويكفي أنَّ لدينا معظم مخزون العالم من النفط.

وموقعنا الجغرافي كذلك له قيمة كبيرة: إستراتيجيَّة وحضاريَّة، فهو ملتقى القارات ومنبع الحضارات، ومهبط الرسـالات السماوية الكبرى: اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام.

٣ ـ القوَّة الروحيَّة:

وثالثة هذه القوى الَّتي تملكها أمتنا: القوَّة الروحيَّة، قوَّة الرسالة الَّتي تؤمن بها، وتدعو إليها، وتحيا لها وتموت عليها: رسـالة الإسلام العامة الخالدة، الَّتي ختم الله بها النبوات والرسالات.

فهي الرسـالة الَّتي تميزت بالربَّانيَّة، فمصدرهـا الله، وغايتها الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

---

(١) بيت من معلقة عمرو بن كلثوم، انظر: ديوانه صـ ٩١، تحقيق إيميل بديع يعقوب، نشـر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ.

QaradawiBooks.com

نحن المسلمين وحدنا الَّذين نملك الوثيقة الإلٰهيَّة الوحيدة الَّتي تتضمَّن كلمات الله الأخيرة للبشريَّة، سالمة من كلِّ تحريف وتبديل: القرآن الكريم الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتميَّزت هذه الرسالة كذلك بالنظرة الشموليَّة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وتميَّزت بنزعتها الأخلاقيَّة، حتَّى قال نبيُّها: «**إنَّما بُعِثْتُ لأتمِّم مكارمَ الأخلاق**»(١).

وتميَّزت بنزعتها الإنسانيَّة والعالميَّة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وتميَّزت بنظرتها الواقعيَّة، فشرعت للضرورات أحكامها، وقدَّرت للإنسان أعذاره، وشرعت الرخص والتخفيفات.

وتميَّزت بخصيصتها الوسطيَّة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فهي توازن بين المادَّة والرُّوح، بين العقل والقلب، بين الدُّنْيَا والآخرة، بين الحقوق والواجبات، بين الفرد والمجتمع، بلا طغيانٍ ولا إخسار.

والعالم أحوج ما يكون إلى هذه الرسالة، لتنقذه من الماديَّة المسرفة، ومن النفعيَّة المجحفة، ومن الإباحيَّة القاتلة، ومن عصر الخوف والقلق والاكتئاب واليأس إلى عصر الأمن والسكينة والبهجة والأمل.

---

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

تحذيرات الأجانب من القوَّة المذخورة في الإسلام وأمته:

إنَّنا نحن المسلمين قد نجهل القوى المذخورة لديننا، ولكن الأجانب الدارسين لطبيعة أُمَّتنا، ومذخور الطاقات في شعوبنا، هم الَّذين يدركون حقيقة ما نملك من قوَّة ذاتيَّة، يحسبون لها ألف حساب، بل يساورهم وهم مفزع من خشية انطلاقها يومًا من الأيام، يقول البروفسور «جب» في كتابه: «وجهة الإسلام»: «إنَّ الحركات الإسلاميَّة تتطوَّر عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجارًا مفاجئًا قبل أنْ يتبيَّن المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة في أمرها، إنَّ الحركات الإسلاميَّة لا ينقصها إلَّا الزعامة، لا ينقصها إلَّا صلاح الدين من جديد»[1].

وكتب الرحالة الألماني «بول أشميد» كتابًا خاصًّا بهذا الموضوع سماه: «الإسلام قوَّة الغد» ظهر سنة (١٩٣٦م) وممَّا قال فيه: إنَّ مقومات القوى في الشرق الإسلامي، تنحصر في عوامل ثلاثة:

١ ـ في قوَّة الإسلام (كدين) وفي الاعتقاد به، وفي مُثُله، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة.

٢ ـ وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعيَّة في رقعة الشرق الإسلامي الَّذي يمتدُّ من المحيط الأطلسي، على حدود مراكش غربًا إلى المحيط الهادي، على حدود إندونيسيا شرقًا، وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصاديَّة سليمة قويَّة ولاكتفاء ذاتي، لا يدع المسلمين في حاجة مطلقًا إلى أوربا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا.

---

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين (٢/٢١١)، نشر مكتبة الآداب، مصر، ط ٢، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

QaradawiBooks.com

٣ ـ وأخيرًا أشار إلى العامل الثالث وهو: خصوبة النسل البشري لدى المسلمين، ممَّا جعل قوتهم العددية قوَّة متزايدة[١].

ثم قال: «فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث؛ فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة، وتوحيد الله، وغطَّت ثروتهم الطبيعيَّة حاجة تزايد عددهم؛ كان الخطر الإسلامي خطرًا منذرًا بفناء أوربا وبسيادة عالميَّة في منطقة هي مركز العالم كله».

ويقترح «بول أشميد» هذا ـ بعد أن فصَّل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسميَّة، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلاميَّة، كما تبلورت في تاريخ المسلمين، وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم ـ أنْ يتضامن الغرب المسيحي شعوبًا وحكومات، ويعيدوا الحرب الصليبيَّة في صورة أخرى ملائمة للعصر، لكن في أسلوب نافذ حاسم[٢].

وقال «روبرت بين» في مقدمة كتابه الَّذي سماه: «السيف المقدس»: «علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم؛ لأنَّهم حكموا العالم سابقًا، وربَّما عادوا إلى حكمه مرَّة أخرى، والشعلة الَّتي أضاءها مُحمَّد لا تزال مشتعلة بقوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنَّ الشعلة لا تطفأ، ولهذا كتبت هذا الكتاب لكي يقف القراء على أصل العرب، وسمَّيْتُه باسم السيف ذي النَّصْلَين الَّذي ناله مُحمَّد في وقعة بدر تذكارًا لانتصاره؛ لأنَّ السيف أصبح رمزًا لمطالبه الإمبرياليَّة»[٣].

---

(١) ليسمع ذلك دعاة تحديد النسل بإطلاق في العالم الإسلامي!

(٢) ترجمة الدكتور محمد البهي في إحدى محاضراته. وقد ترجم الكتاب كله فيما بعد د. محمد عبد الغني شامة، تحت عنوان: الإسلام قوة الغد العالمية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

(٣) السيف المقدس صـ ١٧ من الكتاب بالإنجليزية، وقد نقلنا هذه الفقرة من تقرير للدكتور إسحاق موسى الحسيني عن هذا الكتاب، قدمه إلى الإدارة العامة للثقافة بالأزهر في أواخر الخمسينيات.

QaradawiBooks.com

وبغضِّ النظر عمَّا في هذا الكلام من تحامــل، وما يغلي به من حقد، فهو يُبَيِّن لنا مبلغ قوى المسلمين في نظر الأجانب عنهم، وهم اليوم يُسَمُّون الإســلام «الخطر الأخضر» بعــد أن زال «الخطر الأحمــر» بانهيار الاتِّحاد الســوفيتي، وبعد أن تقاربوا مع «الخطــر الأصفر» المتمثِّــل في الصين، والإسلام ليس خطرًا إلَّا على الإلحاد والفساد والانحلال والاستبعاد.

واســمح لي أنْ أســوق لك مثلًا معاصرًا على القوَّة الذاتيَّة في هذا الإســلام، ذلك المثل هو «تركيــا». تركيا الَّتي أراد أتاتــورك وحزبه أن يعرُّوها من لباس الإسلام وأخلاقه وتقاليده وأحكامه ولغته وكل ما يمتُّ بصلة إليه، حتَّى ألغى غطاء الرأس، وحتَّى الكتابة بالحرف العربي! فقد جعل غطاء الرأس إجباريًّا هو القبعة، وجعل حروف الكتابة هي اللاتينية، منع الكلام بالعربيَّة ولو في الأذان! وأباح للمسلمة أن تتزوَّج اليهودي أو النصراني، وسوَّى بين الذكر والأنثى في الميراث، وجعل القوانين كلَّها غربيَّــة لحمًــا ودمًا وعظمًــا، حتَّــى القوانيــن الَّتي تســمَّى «الأحوال الشــخصيَّة»، وطوردت الثقافة الإســلاميَّة والعربيَّة، وحُورب أهلها بل قوتلوا وقتلوا، وظنَّ النَّاس أنَّ شمس الإســلام قد غربت عن تركيا إلى الأبد، وأنَّ ظلَّ الإسلام قد تقلَّص عنهم إلى غير رجعة، ومرَّت على ذلك عشرات من السنين جاءت راكدة، كفيلة بأنْ تميت الإسلام في الصدور، وأن تدب معها عقارب اليأس إلى القلوب.

ولكن الإسلام الكامن في صدور الشعب التركي لم يمت. يمكن أن تقول إنَّه ركد أو نام، حتَّــى واتته الفرصة فظهر قوَّة مؤثِّرة. ولم نزل نقرأ ونســمع عن امتداد قوَّة التديُّن هنــاك، وانكماش الإلحــاد والإباحيَّة، وخفض صوتهما يومًــا بعد آخر، رغــم ما لديهما من إمكانــات ماديَّة

QaradawiBooks.com

وأدبيَّـة، وما يلقى دعاتهما من مسـاعدات داخليَّـة وخارجيَّة. وظهرت المدارس القرآنيَّة بالألوف، وعادت المسـاجد تبنى، والكتب الإسلاميَّة تنشر، والتوجُّهات الإسلاميَّة تظهر وتُؤَثِّر في الحياة.

ولقد أدَّت انتفاضة الدِّين في تركيا أخيرًا إلى حصول «حزب الرفاه» الإسلامي على الأغلبية النسبية في البرلمان التركي، رغم العقبات الَّتي توضع في طريقه.

إنَّ آية الآيات في هذا الدين وأثره في أمتـه، ما ذكرناه من قبل: أنَّه أشد ما يكون قوَّة وأعظم ما يكون رسوخًا وشموخًا، حين تنزل بساحته الأزمات، وتحدق به الأخطار، ويشـتد على أهله الكرب، وتضيق بهم المسالك، ويقل المساعد والنصير.

حينئذ، يحقِّق هذا الإسلام معجزته، فتنبعث الحياة في الجثمان الهامد، ويتدفَّق دم القوَّة في عروق الأمَّة، وينطلـق جنود الحق انطلاقة المارد من القمقم، فإذا النائم يصحو، والجبان يتشـجع، والضعيف يقوى، والشـارد يعود، والشـتيت يتجمَّع، وإذا هذه القطرات المتتابعـة المتلاحقة من هنا وهناك، تكوِّن سيلًا عارمًا لا يقف دونه حاجز ولا سد من السدود[1].

محن الدعاة:

أمَّا اعتراض البعض بالمحن الشداد الَّتي تصب على رؤوس الدعاة إلى الإسلام، والضربات القاسية الَّتي تنهال عليهم من هنا وهناك، فمن ذا الَّذي يأمل أنْ تقوم لهؤلاء المضطهدين المُشَرَّدين المُعَذَّبين قائمة؟ أو يرتفع لهم علـم؟ أو ينتصر في النَّاس نظام يدعو إليه، ورسـالة يؤمنون

(١) انظر كتابنا: من أجل صحوة راشدة صـ ١٢٤ ـ ١٢٦.

QaradawiBooks.com

بها، وهم في كلِّ يوم بين المِطْرقة والسِّنْدان؟ فنقول لهؤلاء المعترضين أو المُتَوَجِّسين:

إنَّ هذه المحن الَّتي تذكرونها ليست علامة ضعف أو موت لدعاة الإسلام، بل هي دليل حياة وحركة وقوَّة، فإنَّ الميت الهامد لا يُضرب، ولا يُؤذَى، إنَّما يُضْرَب ويُؤْذى الحي المتحرِّك المقاوم.

إنَّ الدعوة الَّتي لا يضطهد أصحابها، ولا يؤذى دعاتها: دعوة تافهة أو ميتة، أو دعاتها ـ على الأقل ـ تافهون ميتون.

ثم إنَّ هذه المحن والاضطهادات برهان على حيويَّة المبدأ نفسه، مبدأ الإسلام، فهو يقدم كل حين شهداء في معاركه، يروون شجرته بدمائهم، ويبنون صرح مجده بأشلائهم.

وهذه المحن أبلغ مَعْلَم، وأعظم مربّ، لأصحاب الدعوات، باعتبارهم أفرادًا، تصفو أنفسهم بالشدة، وتتمحص قلوبهم بالمحنة، وقد جاء في الحديث: «**مثل المؤمن حين يصيبه الوعك أو الحمَّى، كمثل الحديدة تدخل النار، فيذهب خبثها، ويبقى طيبها**»[1].

وحسبنا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤١].

* * *

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٧٣/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، بلفظ: «إنَّما مثل العبد المؤمن حين يصيبه الوعك والحمى، كمثل حديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها». عن عبد الرحمٰن بن أزهر.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

٥

مُبشِّرات من السنن الإلٰهية

وهناك مبشِّرات أخرى مستمدَّة من سنن الله في الخلق وفي الاجتماع الإنساني، وهي سنن وقوانين ثابتة تجري على الآخرين، كما جرت على الأولين، وتجري على المسلمين كما تجري على المشركين، لا تتخلف ولا تتبدل، كما قال سبحانه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [فاطر: ٤٣].

فإذا نظرنا إلى هذه السنن الإلٰهية وجدنا مجموعة منها في صفنا نحن المسلمين، ودعاة الإسلام، من ذلك:

١ ـ سنة التداول:

من هذه السنن: سنة «التداول» أو «المداولة» للأيام بين الأمم والأقوام، وهي السُّنَّة الَّتي قررتها الآية الكريمة من سورة آل عمران، وقد نزلت بعد غزوة أحد الَّتي أصاب المسلمين فيها ما أصابهم، قال ﷻ: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولهذا قيل: الدهر يومان، يوم لك، ويوم عليك، وقيل: دوام الحال من المحال.

نسخة مجانية

فالأحوال تتبدَّل، والدنيا تتحوَّل، والعالم يتغيَّر. وكم من غني افتقر، ومن فقير اغتنى، وكم من عزيز ذلَّ، وذليل عزَّ، وكم من موسر أعسر، ومن معسر أيسر، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ومن نظر في أحوال الأمم عبر التاريخ يجد شعلة الحضارة تنتقل من أمَّة إلى أمَّة، ومن يد إلى أخرى.

ومن حسن حظنا أنَّ «سُنَّة التداول» أو «قانون المداولة بين الناس» يعمل معنا لا ضدنا، وكما قال الإمام حسن البنَّا: إنَّ الدور لنا لا علينا!

فقد كانت قيادة العالم قديمًا في يد الشرق، على أيدي الحضارات الفرعونيَّة والآشورية والبابلية والكلدانية والفينيقية، والفارسية والهندية والصينية، ثمَّ انتقلت إلى الغرب، على يد الحضارة اليونانية ذات الفلسفة الشهيرة، والرومانية ذات التشريع المعروف، ثمَّ انتقلت هذه القيادة مرة أخرى إلى الشرق على يد الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، وهي حضارة متميزة جمعت بين العلم والإيمان، بين الرقي المادي والسمو الروحي، ثمَّ غفا الشرق وغفل عن رسالته.

فأخذ الغرب الزمام، وكانت له القيادة مرة أخرى، ولكنَّه لم يرع أمانة هذه القيادة، بل أفلس في ميدان الروح والأخلاق، وفرط في العدل، وأعلى القوَّة على الحقِّ، والمصالح على القيم، والمادَّة على الروح، والجماد على الإنسان، وكال بمكيالين في التعامل مع القضايا البشريَّة، فكان من سنَّة الله أن تنتقل الشعلة إلى غيره. والمفروض حسب استقراء التاريخ: أنْ تعود إلى الشرق مرة أخرى، الشرق الَّذي يملك رسالة غير

QaradawiBooks.com

رسالة الغرب، وهو الشرق الإسلامي، فعليه أنْ يتهيَّأ لذلك، ويعدَّ له العدَّة، كما قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وليس بعجيب أن تنتقل عجلة القيادة العالميَّة من الغرب إلى الشرق، والغرب الآن هو المتفوق والمقتدر، والشرق هو المتخلف والعاجز!

فالواقع أنَّ المادِّيَّة في الغرب قد تغلغلت في الفكر والسلوك والحياة، وأنَّ التحلل والفساد الأخلاقي قد وصل إلى النخاع، وأنَّ الحضارة لا يمكن ـ وفق سنن الله ـ أن تستمر بلا أخلاق، والأخلاق لا يمكن أنْ تنمو وتؤثر إلَّا في ظلال الإيمان[1].

ولقد رأينا ورأى العالم كلُّه، كيف انهارت القوَّة العالميَّة الثانية ـ وهي الاتِّحاد السوفييتي ـ فجأة، وبلا مقدمات تذكر، برغم ما يملك من ترسانة نووية ضخمة، وأسلحة استراتيجية جبارة، وقوَّة عسكريَّة واقتصاديَّة هائلة، وما ذلك إلَّا لأنَّ الخراب كان في الباطن لا في الظاهر، وفي المعنويات قبل الماديات.

والغرب المنفرد الآن بالقوة وبالتأثير في الساحة العالميَّة ليس أحسن حالًا من نظيره السوفييتي.

سُنَّة التغيير:

ومن السنن الإلٰهية الَّتي نجدها في صف المسلمين، ونعدّها من المُبشِّرات: «سنّة التغيير» الَّتي قرّرها القرآن الكريم في أكثر من آية.

(١) انظر كتابنا: الإسلام حضارة الغد صـ ٢٧ ـ ١١٦، فصل: آفات الحضارة المعاصرة، وفصل: عقلاء الغرب يدقون أجراس الإنذار، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

فالذين يتغيرون من الخير إلى الشر، ومن الاستقامة إلى الانحراف، من الصلاح إلى الفساد، ومن البصيرة إلى العمى، يغيِّر الله ما بهم من حال النعمة إلى النقمة، ومن القوَّة إلى الضعف، ومن العزَّة إلى الذل، ومن الرَّخاء إلى الشدَّة، وهذا ما ذكره القرآن في سورة الأنفال بعد أن ذكر مصير آل فرعون والَّذين من قبلهم، الَّذين كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم.

وقال عز من قائل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٣، ٥٤].

وهذه السُّنَّة إذا طُبِّقت على أهل الحضارة الغربية الَّذين مكَّن الله لهم الأرض، وسخَّر لهم قواها، وآتاهم من كل الثمرات، وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون، ووسَّع عليهم الأرزاق فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكنَّهم ـ كما ذكرنا في «سنة التداول» خانوا أمانة القيادة والمسؤولية، وطغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، وبعبارة وجيزة: أنَّهم غيَّروا ما بأنفسهم إلى الشر والفساد، فهم أهل لأنْ يعمل الله فيهم سنته فيغير ما بهم. ويسحب القيادة منهم، وينقلها إلى غيرهم.

وتتمة هذه السنة: أنَّ الَّذين تتغير أنفسهم، أو يتغير ما بأنفسهم من الشر إلى الخير، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الكسل إلى العمل، ومن الرذيلة إلى الفضيلة، فهم أهل أن يغيِّر الله حالهم أو يغيِّر ما بهم من الضعف إلى القوَّة، ومن الذلة إلى العزة، ومن الهزيمة إلى النصر، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الاستضعاف إلى التمكين.

QaradawiBooks.com

وهذا ما تشـــير إليه الآية الأخرى من سورة الرعد، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وهذه السُّنَّة تمنحنا ـ نحن المســلمين ـ الأمل في التغيير وتحسين الأحوال، فقد رأينا الكثير من المســلمين في عصر الصحوة الإسلاميَّة، يتغيَّرون تغيرًا جذريًّا من الإعراض عن الإســلام إلــى الإقبال عليه، من الجهل بأحكامه، إلى الحرص على التفقه فيه، من التسيب والشرود عن تعاليمه إلى الالتزام بها، من انشــغال الفرد بخاصة نفســه وعدم اهتمام بأمر أمته إلى حمــل هموم الأمَّة، والمشــاركة فــي قضاياها بإخلاص وإيجابيَّة، من الجــري وراء اللذات واتباع الشــهوات إلى إحياء الدعوة وتبنِّي الجهاد للدفاع عــن الدين وحرماته، من التكشــف والتعرِّي عند النســاء إلى الالتزام بالحجاب، مــن البعد عن المســاجد إلى عمارتها بالصلوات والدروس.

وكل هذه الأعمال والآثار تشــعرنا أنَّ الأمَّة قد تغيرت إلى حد كبير، ومقتضى عدل الله تعالى وسُــنَّته ألا يتخلى عنهــا، وأنْ يكافئها على هذا التغير النفسي والسلوكي العميق بأنْ يغير ما بها، ويحولها إلى حال أفضل.

وقفات لا بدَّ منها:

أخي القارئ الكريم؛ أحسب أن شعاع الأمل الَّذي يضيء جوانحي قد وصل إلى قلبك، وأنَّ غيوم اليأس والإحباط الَّتي خيَّمت على أفئدة الكثيرين قد تقشعت أو أوشكت، وأنَّ الشــعور بأنَّ نصر الله قريب قد ســاد وهيمن، رغم المؤتمرات الَّتــي تعقد، والمؤامــرات الَّتي تدبر، والحملات الَّتي تشــن على الإسلام، باســم التطرف حينًا، والإرهاب حينًا، والأصوليَّة أحيانًا!

QaradawiBooks.com

أجل، إنِّـي ـ برغم الضغـوط الهائلة الَّتـي تتعرض لهـا الصحوة الإسلاميَّة، والضربات الوحشية الَّتي توجَّه للحركة الإسلاميَّة، والمكايد الخفية الَّتي تُبَيَّت للأمة الإسـلاميَّة، وغفلة القائمين على أمر الأمَّة، بل مساعدتهم لأعدائها على شعوبهم ـ برغم هذا كلّه ـ أنا متفائلٌ بمستقبل الأمَّة والصحوة والدعوة.

ولطالما أعلنت في أكثر من مناسبة في محاضراتي ودروسي: أنَّه إذا كان القرن التاسع عشر قرن الرأسمالية، والقرن العشرون قرن الشيوعية، فإنَّ القرن الحادي والعشرين هو قرن الإسلام.

ويمكن أن نقول: إذا كان القرن التاسع عشر قرن المسيحيَّة، والقرن العشرون هو قرن اليهوديَّة، وقيام دولة إسـرائيل، وانتصارها على بضع وعشـرين دولة عربيَّة، وبضع وأربعين دولة إسلاميَّة، فإنَّ القرن الحادي والعشرين هو قرن الإسلام!

أعني إذا نظرنا إلى الإسـلام دينًا بيـن الدينين الشـهيرين: اليهوديَّة والمسـيحيَّة، أو إذا نظرنا إليه باعتبـاره نظامًا بين النظاميـن العالميين: الرأسمالية والشـيوعية ـ فإنَّ الإسـلام يتميَّز بأنَّه نسـيج وحده، ويحمل عناصر الخلود في طبيعته، والإحياء لأمَّته، والانتشار لدعوته، مع مسيس حاجة العالم إليه، بوصفه رسالة التوازن الوحيدة، الَّتي يفتقر إليها الإنسان.

وأحمد الله أنَّ الَّذي قلته منذ زمن وجدت اليوم من يشاركني فيه: أنَّ القرن القادم هو قرن الإسلام بإذن الله.

قال ذلك الدكتور «مراد هوفمان» في كتابه «الإسلام عام ٢٠٠٠» الَّذي أكَّد أنَّ الفرص متاحـة أمام الإسـلام ليصبح ديانة العالـم الأولى في القرن (٢١).

QaradawiBooks.com

وقاله «جيم ميران» عضو لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكي، الَّذي دعا الأمريكيين إلى وجوب التعرُّف على الإسلام دين السلام والمسامحة، الدين الَّذي يحثُّ على الكد والاجتهاد، ويحب النظام والالتزام، ويفيض بالحب واللطف، وهو يعتبر الرسول محمدًا أعظم إنسان عرفه التاريخ، ويجب التعرف على جوانب عظمته الَّتي كان يتمتع بها، وكذلك عدد كبير من أصحابه، وكل شعوب العالم يجب أنْ تتعرف على التعاليم الَّتي جاء بها مُحمَّد، ولكن للأسف لم يحدث ذلك لسببين:

الأول: هو اتخاذ غير المسلمين موقفًا من هذه التعاليم، منطلقه التعصب والتحيز والجهل.

والثاني: هو عدم سعي المسلمين حثيثًا لاطلاع غيرهم على عظمة دينهم.

وانتهى في حديثه الطويل مع مدير تحرير مجلة «المجتمع» الكويتية إلى قوله: أنا أعتقد أنَّ القرن القادم هو قرن الإسلام، وقرن الثقافة الإسلاميَّة، وستكون هذه فرصة لإحلال مزيد من السلام والرفاهية في كلِّ بقاع العالم[1] اهـ.

تنبيه على أمرين:

أريد أنْ أنبه في هذه الوقفات على أمرين مهمين:

الأول: أنَّ كل الدعاة والمصلحين المجددين كانوا من ذوي القلوب الآملة في الله، الواثقة بالنصر، الراجية للغد، المرتقبَة لطلوع الفجر.

(١) انظر: حوار أحمد منصور مع جيم ميران، مجلة المجتمع، العدد (١١٩)، الصادر في (٥ مارس ١٩٩٦م).

QaradawiBooks.com

ولا يصلح داعية يغمره اليأس من نجاح دعوته، وانتصار رسالته، بل الداعية الحق هو الَّذي يهزم الأمل فيه اليأس، ويغلب الرجاء فيه عوامل الخوف والقلق، ويطمئن إلى أنَّــه مع الله، فالله تعالى معه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

حسن البنا والأمل:

وقد كان إمامنا الشهيد حسن البنَّا من أقوى النَّاس أملًا في النصر، ورجاءً في المستقبل، رغم ما يعلمه ويحسُّــه من ألغام العقبات الَّتي توضع فــي طريقه، بيَّن ذلك في محاضراته ودروســه، وســجَّله في رســائله الشــهيرة، وكَتَبَه في مقالاته، وخصوصًا في جريدة «الإخوان المسلمون» اليومية. الَّذي كان يكتب فيها «حديث الجمعة» الأسبوعي، ولا ســيما في ســنة (١٩٤٨م) والمحنة تطل برأســها، ويهيِّئ «الطهاة المهرة» طبختها المسمومة.

أذكر من هــذه المقالات: مقالًا بعنوان «ولو» يبشــر فيــه أنَّ النصر قريب، ولو اشــتدَّت الغمَّة، وأنَّ الفجر قادم وإنْ طالت الظلمة، ومقالًا بعنوان «أربعة أدلَّة» اســتدلَّ فيه بالنصوص والتاريخ والحساب على أنَّ النصر آت لا ريب فيه.

وفي رسائله أكَّد هذا المعنى تأكيدًا بليغًا، بأسلوبه «السهل الممتنع» كما في رسالة «دعوتنا في طور جديد» الَّتي ركز فيها على «يقظة الروح» الَّتي يريد بها حيــاة القلوب، وصحــوة الوجدان والمشــاعر، وطموح الأنفس وتوثَّبها لتحقيق الأهداف الســامية والمثــل العليا، وهو ما فعله النبي ﷺ بنفوس أصحابه، حيث غرس فيها هذه المشاعر الثلاثة: الإيمان

QaradawiBooks.com

والعزَّة والأمل، الإيمان بعظمة الرسالة، والاعتزاز باعتناقها، والأمل في تأييد الله إياها.

وفي رسالة «إلى أيِّ شيء ندعو الناس» يقول البنَّا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحت عنوان «طريق طويلة»:

«أرجو أنْ تكون هـذه الكلمات المتتاليات في بيـان دعوة الإخوان المسلمين قد كشفت للقرَّاء الكرام عن غايتهم، وأبانت لهم ولو إلى حدٍّ ما عن مناهجهم في السير إلى هذه الغاية، وقد تحدثت من قبل إلى كثير من إخواننا الغيورين على الإسـلام ومجده حديثًا طويلًا هو أشبه بهذه الكلمات الَّتي رآها القرَّاء تحت عنوان: «إلى أيِّ شيء ندعو الناس».

ولقد أصغى إليّ من حدثتهم إصغاء مشكورًا، وكنا نتفهم القول تباعًا أولًا فأولًا، حتَّى خرجنا من المحادثة مقتنعين تمامًا بشرف الغاية ونجاح الوسيلة. وكم كانت دهشتي عظيمة حين رأيت منهم شبه إجماع على أنَّ هذه السبيل مع التسـليم بنجاحها طويلة، وأنَّ التيارات الجارفة الهدامة في البلد قويَّة، ممَّا يجعل اليأس يدب إلـى القلوب الَّذي وجده أولئك المتحدثون من قبل، وحتَّى لا يجد القراء الكرام في أنفسهم هذا الشعور الَّذي وجـده أولئك المتحدثون من قبل، أحببـت أنْ تكون هذه الكلمة مفعمة بالأمل، فيَّاضة باليقين في النجاح إنْ شـاء الله، ولله الأمر من قبل ومن بعد؛ وسأحصر الموضوع في نظرتين إيجابيتين:

أ ـ نظرة فلسفية اجتماعيَّة:

يقول علماء الاجتماع: إنَّ حقائق اليوم هـي أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد. وتلك نظرة يؤيدهـا الواقع ويعزِّزها الدليل والبرهان،

QaradawiBooks.com

بل هي محور تقدم الإنسانيَّة وتدرجها في مدارج الكمال، فمن ذا الَّذي كان يصدق أنْ يصل العلماء إلى ما وصلوا إليه من المكتشفات والمخترعات قبل حدوثها ببضع سنين، بل إنَّ أساطين العلم أنفسهم أنكروها لأوَّل عهدهم بها، حتَّى أثبتها الواقع وأيَّدها البرهان، والمثل على ذلك كثيرة، وهي من البداهة بحيث يكفينا ذلك عن الإطالة بذكرها.

ب ـ نظرة تاريخية:

إنَّ نهضات الأمم جميعها إنَّما بدأت على حال من الضعف يخيل للناظر إليها أنَّ وصولها إلى ما تبتغي ضربٌ من المحال. ومع هذا الخيال فقد حدثنا التاريخ أنَّ الصبر والثبات والحكمة والأناة وصلت بهذه النهضات الضعيفة النشأة، القليلة الوسائل، إلى ذروة ما يرجو القائمون بها من توفيق ونجاح.

ومن ذا الَّذي كان يصدق أنَّ الجزيرة العربيَّة، وهي تلك الصحراء الجافة المجدبة تنبت النور والعرفان، وتسيطر بنفوذ أبنائها الروحي والسياسي على أعظم دول العالم؟

ومن ذا الَّذي كان يصدق أنَّ هذه الشيعة الضئيلة المستترة من بني علي والعباس تستطيع أن تقلب ذلك الملك القوي الواسع الأكناف ما بين عشية وضحاها، وهي ما كانت يومًا من الأيام إلَّا عرضة للقتل والتشريد والنفي والتهديد؟

ومن ذا الَّذي كان يظن أنَّ صلاح الدين الأيوبي يقف الأعوام الطوال، فيرد ملوك أوربا على أعقابهم مدحورين، مع توافر عددهم وتظاهر جيوشهم، حتَّى اجتمع عليه خمسة وعشرون ملكًا من ملوكهم الأكابر؟

QaradawiBooks.com

ذلك في التاريخ القديم، وفي التاريخ الحديث أروع المثل على ذلك، فمن كان يظن أنَّ الملك عبد العزيز آل سعود وقد نفيت أسرته وشرد أهله وسلب ملكه يسترد هذا الملك ببضعة وعشرين رجلًا، ثمَّ يكون بعد ذلك أملًا من آمال العالم الإسلامي في إعادة مجده وإحياء وحدته؟

هل هناك طريق أخرى؟

وثم نظرتان تُحدِثان النتيجة بعينها، وتوجهان قلب الغيور إلى العمل توجيهًا قويًّا صحيحًا، **أولاهما**: أنَّ هـذه الطريق مهما طالت فليس هناك غيرها في بنـاء النهضات بناء صحيحًا، وقد أثبتـت التجربة صحة هذه النظرية.

وثانيتهما: أنَّ العامل يعمل لأداء الواجب أولًا، ثمَّ للأجر الأخروي ثانيًا، ثمَّ للإفادة ثالثًا، وهو إن عمل فقد أدى الواجب، وفاز بثواب الله ما في ذلك من شك، متى توفرت شروطه؛ وبقيت الإفادة وأمرها إلى الله، فقـد تأتي فرصة لـم تكن في حسـابه تجعل عملـه يأتي بأبرك الثمرات، على حين أنَّه إذا قعد عن العمل فقد لزمه إثم التقصير، وضاع منه أجر الجهاد، وحرم الإفادة قطعًا، فأي الفريقين خير مقامًا وأحسـن نديًّا؟ وقد أشـار القرآن الكريم إلى ذلك في صراحة ووضوح في الآية الكريمـة: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤، ١٦٥]»[(١)].

(١) رسالة إلى أي شيء ندعو الناس ضمن مجموعة الرسائل صـ ٥٢ ـ ٥٤.

QaradawiBooks.com

المُبشِّرات تدفع إلى المزيد من العمل:

والأمر الثاني الَّذي أريد التنبيه عليه هنا، هو: أنَّ المُبشِّرات بمستقبل الإسلام، الَّتي ذكرناها، لا ينبغي لنا أن نتَّكل عليها، وننام على آذاننا، ونخلد إلى الدَّعة والكسل، وننتظر نصر الله ينزل علينا دون جهد نبذله، وجهاد نمارسه، وعمل دؤوب نقوم به في جوانب حياتنا كلها، نُقَوِّم ما اعوج منها، ونصلح ما فسد، ونبني ما تهدم، ونقوي ما ضعف، ونكمل ما نقص، بروح المجدِّدين، لا بعقليَّة المقلدين.

نستلهم تراثنا، ونجعله منارًا يهدينا، لا قيدًا يثقل حركتنا، ويعوق انطلاقنا.

نقتبس الحكمة من أيِّ وعاء خرجت، فلا نتقيَّد بمدرسة إسلاميَّة واحدة، ولا نلتزم مذهبًا واحدًا لا نخرج عنه، بل نستفيد من كلِّ المدارس والمذاهب والمشارب، في ضوء القواعد المتَّفق عليها، رادِّين المتشابهات إلى المحكمات، والظنيَّات إلى القطعيَّات، والجزئيَّات إلى الكليَّات، والفروع إلى الأصول.

بل نقتبس من مدارس الغرب ومناهجه وتجاربه كل ما ينفعنا، ويمكننا أن نحوره ونطوره في إطار معاييرنا وحاجاتنا وظروفنا، حتَّى يلائمنا، ويغدو جزءًا من منظومة حياتنا. ولا حرج علينا في ذلك، فالحكمة ضالَّة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق النَّاس بها.

لا بدَّ لنا أن نخرج من سجن التخلف إلى باحة التقدم، وأن ننمو نموًّا حقيقيًّا، اقتصاديًّا، وبشريًّا، ماديًّا ومعنويًّا، وأن نجنِّد كل طاقاتنا ـ الَّتي أهدرنا أو عطَّلنا الكثير منها ـ لتنمية شاملة، للحياة وللإنسان، وأن نتَّخذ من الإسلام أكبر حافز لحشد هذه الطاقات وتقويتها، ودفع عجلتها

QaradawiBooks.com

إلى الأمام بقوَّة قد تبلغ عشرة أضعاف الجهد العادي، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى في ميدان الجهاد: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

لقد أرشد القرآن إلى أنَّ نصر الله لا يكون ولا يتم إلَّا بالمؤمنين، كما أنَّه لا يكون إلَّا للمؤمنين. كما قال تعالى يخاطب رسوله الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

فلا نتوقع أن تنزل ملائكة السماء الَّتي نزلت في بدر أو في الأحزاب أو حنين ـ على قوم فرغت قلوبهم من الإيمان، أو خلَت حياتهم من أخلاق الإيمان، وأعمال المؤمنين، فالله تعالى يقول في بدر: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

إنَّ الرسالات لا تنتصر وحدها، إنَّما تنتصر بأهلها، والحق لا يعلو وحده، إنَّما يعلو ـ وفق سنن الله ـ بدعاته ورجاله الَّذين جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص، كما قال الشاعر:

وشيمة السيف: أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلَّا في يدي بطل[1]!

إنَّ المُبشِّرات بانتصار الإسلام يجب أن تمنحنا وقودًا متجدِّدًا، لمزيد من العطاء والعمل الَّذي تحتاج إليه أمَّتنا على كل صعيد. ولا تطمع الأمَّة أنْ يمدها الله بنصره، على ما بها من سيئ الخصال، وسيئ الفعال، بل لا بدَّ للأمَّة أن تغيِّر ما بأنفسها حتَّى يغيِّر الله ما بها.

(١) البيت للطغرائي في لاميته المسماة بلامية العجم، انظر: ديوانه صـ ٣٠٧، تحقيق د. علي جواد طاهر ود. يحيى الجبوري، نشر مطابع الدوحة الحديثة، ط٢، ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

لا تطمع الأمَّة أن تنتصر على اليهود، وهي على حالها من التخلُّف والتمزُّق، والتَّعادي، والعجز والكسل، والتسيُّب والضياع.

يستحيل أنْ ينصر الله الكسالى على العاملين، والمختلفين على المتحدين، والفوضويين على المنظمين، والمرتجلين على المخططين، والمتسيبين على المنضبطين، والمفكرين في مصالحهم على المفكرين في هموم أمتهم.

يستحيل أنْ تنتصر أمة تحارب أفضل عناصرها، وتنكل بخيرة أبنائها، أعني: العناصر الإسلاميَّة، الَّتي يشهد لها من عايشوها أنَّها أذكى عقولًا، وأطهر قلوبًا، وأنظف أيديًا، وأصدق عزائم، وأزكى أخلاقًا، وأقوم أعمالًا، وأكثر بذلًا وتضحية، من سائر الفئات.

إنهم بريئون من ارتكاب الموبقات، بل الصغائر، بل الشبهات، حتَّى السيجارة لا يعرفونها ولا تعرفهم. إنهم رهبان الليل وفرسان النهار، يعرفهم الليل قانتين، والنهار جاهدين، ويعرفهم النَّاس عاملين، ويعرفهم ربهم مخلصين، ولا نزكيهم على الله تعالى.

يستحيل أنْ تنتصر أمَّة أعظم ما يشغلها لعب الكرة، وأهم ما يملأ صحفها المقروءة، وإذاعتها المسموعة والمرئية هو الغناء والرقص والتمثيل، وأشهر نجوم المجتمع فيها ليسوا العلماء ولا الأدباء، ولا المفكرين، بل هم المطربون والمطربات، والراقصون والراقصات، والممثلون والممثلات، الأحياء منهم والأموات!

يستحيل أن تنتصر أمَّة متوسط عمل الفرد فيها نحو نصف ساعة في اليوم، في حين يعرق النَّاس في العالم المتقدم طوال اليوم، ويكد ويكدح

QaradawiBooks.com

حتَّى يعود إلى بيته آخر النهار، مكدودًا مهدودًا، يخلد بسرعة إلى الراحة ليواصل عمله مبكرًا في غده.

على القوى الموجهة للأمَّة، المؤثرة في سيرها، أنْ تتعاون فيما بينها للنهوض بها في كل الميادين، وتعويض ما فاتها على مرِّ السنين، وسد الفجوة الَّتي تباعد بينها وبين العالم المتقدم، ومواجهة التحديات بعزم وإيمان، معتمدة على تخطيط دقيق، واستشراف مستقبلي بصير.

عليها أن تدرس الأمراض الَّتي تشكو منها، وتعرف أسبابها، وتعمل على علاجها، وما خلق الله داء إلَّا خلق له دواء، عَلِمَه من علمه، وجهله من جهله.

عليها ـ في الجانب الاقتصادي ـ أنْ تعمل على زيادة الإنتاج، وترشيد الاستهلاك، وعدالة التوزيع، وسلامة التداول.

وفي الجانب الاجتماعي: أنْ تقوِّي الإخاء بين الأفراد، والتعاون بين الطبقات، والتضامن بين الشعوب، وأنْ تقرب المسافة بين الأغنياء والفقراء، وأنْ ترعى الأمومة والطفولة والشيخوخة، وتقيم الحياة الأسرية على أسس مكينة تظلها السكينة والمودة والرحمة.

وفي الجانب العقلي والثقافي: عليها أنْ تتحرَّر من آثار الغزو الفكري، والاستعمار الثقافي، في مجال التربية والتعليم، ومجال الثقافة والإعلام، فهذه هي الَّتي تصنع عقول الناس، وتنشئ اتجاهاتهم النفسيَّة والفكرية.

وفي الجانب السياسي: عليها أنْ تقاوم الاستبداد والطغيان، وترسِّخ دعائم الشورى، وترعى حقوق الإنسان، وتربي النَّاس على ضرورة

QaradawiBooks.com

التناصح وفرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقويم العوج باليد لمن استطاع، وباللسان لمن قدر عليه، وبالقلب عند العجز، وذلك أضعف الإيمان، وأنْ تضع من الدساتير ما يفصل الحقوق والواجبات، يميز بين السلطات، ويقيم دولة المؤسسات، ويسوِّي بين النَّاس في الكرامة والحرية وتحمل المسؤولية. ولا يعطي امتيازًا لأحد على أحد إلَّا بالتقوى.

لقد بيَّنَّا في كتابنا «أين الخلل؟» الطاقات المعطلة في الأمَّة الإسلاميَّة، والطاقات المعطلة في الحركة الإسلاميَّة، ودعونا إلى إصلاح الخلل في الجانبين، إنْ أردنا غدًا أفضل، ومستقبلًا أمثل.

لا بدَّ أن يتعاون الدعاة والمصلحون لاستفراغ الجهود، لتغيير الأمَّة من داخلها، وتعبئة قواها الذاتيَّة، لتعوض ما فاتها، وتلحق بركب العالم المتطور، تأخذ أفضل ما عنده، وتعطيه أفضل ما عندها. ولا ريب أن عندها الكثير الطيب المبارك، الَّذي ورثته من رسالة الإسلام، وحضارة الإسلام.

وإنَّ الإسلام ـ الَّذي غير العرب قديمًا، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وجعلهم رعاة الأمم، بعد أن كانوا رعاة الغنم ـ قادر على أن يغيرهم اليوم، ويعيدهم ـ كما يحب الله لهم ـ خير أُمَّة أخرجت للناس، وأنْ يجعل منهم «صحابة جددًا» بعثهم الله تعالى، ليخرجوا النَّاس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدُّنْيَا إلى سعتها، ومن جور الأديان والمذاهب والفلسفات إلى عدل الإسلام، وقيم الإسلام.

إنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا موقنين ـ كل الإيقان ـ بأنَّهم منصورون، وأنَّ جندهم هم الغالبون، وأنَّ هذا وعد الله، ولن يخلف الله وعده، ولكن هذا الإيمان أو اليقين لم يقعدهم عن العمل الجاهد، وعن الجهاد المر، وعن

QaradawiBooks.com

البذل الدائم، حتَّى يتحقق وعد الله، فإنما يتحقق في الأرض وعد الله في السماء بهم، لا بغيرهم، فهم أدوات القدر في تحقيق الوعد الإلٰهي. بل هم القدر الموعود، كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم.

فقد رووا أنَّ بعض قادة الفرس سأل بعض قادة الصحابة في إحدى معارك الفتح الإسلامي: من أنتم؟ وما شأنكم؟ فقال له: نحن قدر الله، ابتلاكم الله بنا، وابتلانا بكم، فلو كنتم في سحابة لصعدنا إليكم، أو لهبطتم إلينا[1]!

بهذه الروح القوية المتوثبة الآملة يجب أن نجابه مشكلاتنا، ونواجه معوقاتنا من الداخل ومن الخارج، بادئين بالداخل، فهو أسُّ البلاء وجرثومة الداء. والله تعالى يوجِّهنا إلى ذلك حين خاطب المسلمين بعد انكسار غزوة أحد فيقول: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فلنمض إذنْ على بركة الله عاملين مصمِّمين، في صدق لا يعرف الزيف، وثبات لا يعرف التردُّد، وعزم لا يعرف الكلل، ويقين لا يعرف الشك، وأمل لا يعرف القنوط، وجهاد لا يعرف القعود. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

* * *

(١) انظر: تاريخ الطبري (٦٠١/٣)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

أضواء على أحاديث أُسيءَ فهمها

حديث: «بدأ الإسلام غريبًا»

س: من الأحاديث المشـــتهرة على الألســـنة والأقلام: حديث «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**».

فما مدى صحة هذا الحديث من ناحيـــة؟ وما المراد به؟ وهل كلمة «غريبًا» من الغربة أو من الغرابة؟ فقد سمعت بعض المتحدثين في «الإذاعة» يؤكد أنَّها من «الغرابة والدهشـــة» وينفي أنْ تكون من «الغربة».

وإذا كانت من الغربة كما هو الشائع والمتبادر، فهل يعني هذا ضعف الإسلام وأفول نجمه؟

وهل هناك دلائل على انتصار الإســـلام مرة أخـــرى، كما انتصر في القرون الأولى للهجرة؟

ج: الحديث صحيح الإسناد بلا نزاع من أهل هذا الشأن، وهو مروي عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

نسخة مجانية

فقد رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هُرَيْرة[١]، والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود[٢]، وابن ماجه عن أنس[٣]، والطبراني عن سلمان[٤] وسهل بن سعد[٥]، وابن عباس[٦]، رضي الله عنهم جميعًا، كما في «الجامع الصغير».

وقد رواه مسلم عن ابن عمر دون جملة «**فطوبى للغرباء**»[٧].

وبهذا نعلم أنَّ صحة الحديث لا كلام فيها، وبقي الكلام في معناه.

ومن المؤسف أن كثيرًا من الأحاديث المتعلقة بـ «آخر الزمان» أو ما يسمَّى «أحاديث الفتن» و«أشراط الساعة» يفهمها بعض النَّاس فهمًا يوحي باليأس من كل عمل للإصلاح والتغيير.

ولا يتصور أنْ يدعو الرسول الكريم ﷺ الأمَّة إلى اليأس والقنوط، وترك الفساد يستشري في الناس، والمنكرات تنخر في عظام المجتمع، دون أنْ يصنع النَّاس شيئًا، يُقوِّم ما اعوج، أو يصلح ما فسد.

وكيف يتصور ذلك، وهو ﷺ يأمر بالعمل لعمارة الأرض، إلى أن تلفظ الحياة آخر أنفاسها، كما يتَّضح ذلك من الحديث الشريف: «**إنْ قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم** ـ أي الساعة ـ **حتَّى يغرسها، فليغرسها**»[٨].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٦).

(٢) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٩)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٨).

(٣) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٨٧).

(٤) رواه الطبراني (٢٥٦/٦).

(٥) رواه الطبراني في الصغير (٢٩٠)، وفي الأوسط (٣٠٥٦).

(٦) رواه الطبراني في الكبير (٧٠/١١)، وفي الأوسط (٥٨٠٦).

(٧) رواه مسلم (١٤٦)، والترمذي (٢٦٢٩)، كلاهما في الإيمان.

(٨) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

ومعنى هــذا أنَّه لن يأكل مــن ثمر هذا الغرس ولا أحــد من بعده، ما دامت الساعة قد قامت، أو توشك أنْ تقوم.

فإذا كان هذا مطلوبًا في أمر الدنيا، فأمر الدين أعظم وأجل، ولا بدَّ من العمل من أجله إلى آخر رمق في هذه الحياة.

أمَّا معنى كلمــة «غريبًا» فالمتبادر أنَّها مــن «الغربة» لا من «الغرابة» بدليل آخر الحديث «**فطوبى للغرباء**» فالغرباء هنا جميع «غريب» والمراد به المتصف بالغربة لا الغرابة.

وإنما كانت غربتهم من غربة الإسلام الَّذي يؤمنون به ويدعون إليه، وهذا هو المعنى المفهوم من كلمة «غريب» في أكثر من حديث مثل «**كن في الدُّنْيَا كأنك غريب**»[(١)].

كما جاءت جملة أحاديث وروايات فيهــا زيادات في هذا الحديث، في وصف «الغرباء» ممَّا يؤكد أنَّ المقصود هو الغربة لا الغرابة.

هذا إلى أنَّ الواقع اليوم وفي عصور خلت، يدلُّ على غربة الإسلام في دياره ذاتها، وبين أهله أنفسهم. حتَّى إن من يدعو إلى الإسلام الحق يعاني الاضطهاد والتنكيل، أو الشنق أو الاغتيال!

ولكن هل هــذه الغربة عامَّة وشــاملة ودائمة، أو هــي غربة جزئيَّة ومؤقَّتة؟ فقد تكون في بلد دون آخر، وفي زمن دون آخر، وبين قوم دون غيرهم، كما ذكر ذلك المحقِّق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)].

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، عن ابن عمر.

(٢) انظر: مدارج الســالكين (١٨٦/٣)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

والــذي أراه: أنَّ الحديث يتحــدَّث عــن دورات أو «موجات» تأتي وتذهب، وأنَّ الإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من القوَّة والضعف، والامتداد والانكماش، والازدهار والذبول، وفق سنن الله الَّتي لا تتبدل، فهو كغيره خاضع لهذه الســنن الإلٰهيَّــة، الَّتي لا تعامل النَّــاس بوجهيــن، ولا تكيل لهــم بكيلين، فمــا يجري علــى الأديان والمذاهب يجري على الإسلام، وما يجري على سائر الأمم يجري على أمَّة الإسلام.

فالحديث ينبئ عن ضعف الإسلام في فترة من الفترات، ودورة من الدورات، ولكنَّه سرعان ما ينهض من عثرته، ويقوم من كبوته، ويخرج عن غربته، كما فعل حين بدأ.

فقد بدأ غريبًا، ولكنَّه لم يســتمر غريبًا، لقــد كان ضعيفًا، ثمَّ قوي مستخفيًا، ثمَّ ظهر محدودًا، ثمَّ انتشر مضطهدًا، ثمَّ انتصر.

وســيعود غريبًا كما بدأ، ضعيفًا ليقوى، ثمَّ يقوى، مطاردًا ليظهر ثمَّ يظهر على الدين كله، ملاحقًا مضطهدًا لينتشر وينتشر، ثمَّ ينتصر وينتصر.

فلا دلالة في الحديث على اليأس من المستقبل إنْ أحسنَّا فهمه.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الحديث لا يعني الاستســلام أو اليأس، ولا يدعو إليه بحال: ما جاء في بعض الروايات من وصف لهؤلاء «الغرباء» من أنَّهم الَّذين يصلحون ما أفسد النَّاس من السنة، ويحيون ما أماته النَّاس منها.

فهم قــوم إيجابيون بنَّــاؤون مصلحون، وليســوا من الســلبيين أو الانعزاليــن أو الاتِّكاليين، الَّذيــن يَدَعُون الأقدار تجري فــي أعنَّتها، ولا يحركون ساكنًا، أو ينبهون غافلًا.

QaradawiBooks.com

ومن المفيد أنْ أنقل هنا ما كتبه الإمام ابن القيم حول هذا الحديث، عند شرح كلام شيخه الهروي في باب «الغربة» من «منازل السائرين» إلى مقامات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ في «مدارج السالكين»: قال شيخ الإسلام: «باب الغربة» قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]».

قال ابن القيم معلقًا وشارحًا: «استشهاده بهذه الآية في هذا الباب: يدلُّ على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن، فإنَّ الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الَّذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**». قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**الذين يصلحون إذا فسد الناس**»[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي، عن زهير، عن عمرو بن أبي عمرو ـ مولى المطلب بن حنطب ـ عن المطلب بن حنطب، عن النبي ﷺ قال: «**طوبى للغرباء**». قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «**الذين يزيدون إذا نقص الناس**»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه صـ٨٩.

(٢) بحثت عن الحديث في مظانه في المسند فلم أجده، وكذلك لم أجده في مجمع الزوائد للهيثمي، ولا أشار إليه في المعجم المفهرس للكتب التسعة. بل لم أجد المطلب بن حنطب ضمن الصحابة الرواة في المسند، وفقًا لفهرس الشيخ الألباني. فإما أن يكون ساقطًا من المطبوع كما تبينت ذلك مع عقبة بن مرة الجهني، فإن له ثلاثة أحاديث في المسند، ليس في المطبوع إلَّا واحد منها، أو يكون أحمد رواه خارج المسند. قد رواه علي السعدي في جزء أحاديث إسماعيل بن جعفر (٣٦٧). وأورده نبيل جرار في الإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء (٥٥٤/٧)، ثم قال: مرسل وإسناده حسن إلى المطلب.

QaradawiBooks.com

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظًا ـ لم ينقلب على الراوي لفظه وهو: «**الذين ينقصون إذا زاد الناس**» ـ فمعناه: الَّذين يزيدون خيرًا وإيمانًا وتقى، إذا نقص النَّاس من ذلك. والله أعلم.

وفي حديث الأعمش عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**النزاع من القبائل**»[(١)].

وفي حديث عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ ذات يوم. ونحن عنده ـ «**طوبى للغرباء**». قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**ناس صالحون قليل في ناس كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»[(٢)].

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جبل، حدثنا مُحمَّد بن مسلم، حدثنا عثمان بن عبد الله، عن سليمان بن هرمز، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أحبَّ شيء إلى الله الغرباء**» قيل: ومن الغرباء؟ قال: «**الفرَّارون بدينهم. يجتمعون إلى عيسى بن مريم** عليه السلام **يوم القيامة**»[(٣)].

وفي حديث آخر: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**الذين يحيون سنَّتي، ويعلّمونها الناس**»[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه صـ٨٩.

(٢) رواه أحمد (٦٦٥٠)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. والطبراني في الأوسط (٨٩٨٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١٩١): فيه ابن لهيعة وفيه ضعف. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٦١٩).

(٣) رواه أحمد في الزهد (٤٠٤).

(٤) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦٣٠)، وحسَّنه، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٥٣)، عمرو بن عوف المزني.

QaradawiBooks.com

وقال نافع عن مالك: «دخل عمر بن الخطاب المسجد، فوجد معاذ بن جبل جالسًا إلى بيت النبي ﷺ، وهو يبكي، فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمٰن؟ هلك أخوك؟ قال: لا، ولكن حديثًا حدَّثنيه حبيبي ﷺ وأنا في المسجد، فقال: ما هو؟ قال: «**إنَّ الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الَّذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كلِّ فتنة عمياء مظلمة**»[(١)].

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون. ولقلتهم في النَّاس جدًّا: سموا «غرباء» فإنَّ أكثر النَّاس على غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في النَّاس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السُّنَّة ـ الَّذين يميزونها من الأهواء والبدع ـ فيهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين: هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا، فلا غربة عليهم، وإنَّما غربتهم بين الأكثرين، الَّذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريبًا من تناءت ديارُه ولكن من تنأين عنه غريبُ[(٢)]!

---

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٨٩)، والحاكم في الإيمان (٤/١)، وقال: صحيح لا علة له. وفي الرقاق (٣٢٨/٤)، وصحَّحه، وأمَّا في زوائد ابن ماجه (١٤١٠)، فضعفه بابن لهيعة، مع أنَّ الراوي عنه هو عبد الله بن وهب، والتحقيق: أنَّه إذا روى عنه أحد العبادلة ـ ومنهم ابن وهب ـ فحديثه مقبول، ويصححه كثير من المحققين. وكان الأولى أن يضعف في سند ابن ماجه بعيسى بن عبد الرحمٰن فهو متروك. وسند الحاكم في الموضع الأول ليس فيه ابن لهيعة ولا عيسى، فهو العمدة.

(٢) ذكره بلا نسبة ابن القيم في مدارج السالكين (١٨٦/٣).

QaradawiBooks.com

ولما خرج موسى عليه السلام هاربًا من قوم فرعون انتهى إلى مدين، على الحال الَّتي ذكر الله، وهو وحيد غريب خائف جائع، فقال: «**يا رب؛ وحيد مريض غريب، فقيل له: يا موسى؛ الوحيد: من ليس له مثلي أنيس، والمريض: من ليس له مثلي طبيب، والغريب: من ليس بيني وبينه معاملة**».

فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنَّة رسوله بين هذا الخلق. وهي الغربة الَّتي مدح رسول الله ﷺ أهلها. وأخبر عن الدين الَّذي جاء به: أنَّه «**بدأ غريبًا**»، وأنَّه «**سيعود غريبًا كما بدأ**»، وأنَّ «**أهله يصيرون غرباء**».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقًّا.

فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الَّذين فارقوا النَّاس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق النَّاس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم. فيقال لهم: «**ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وإنا ننتظر ربنا الَّذي كنا نعبده**»[1].

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها. بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس. وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا. فوليه الله ورسوله والَّذين آمنوا، وإن عاداه أكثر النَّاس وجفوه.

---

(١) جزء من حديث متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٥٨١)، ومسلم في الإيمان (١٨٣)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره**»(١).

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟**» قالوا: بلى يا رسول الله؛ قال: «**كل ضعيف أغبر، ذي طمرين لا يؤْبه له، لو أقسم على الله لأبرَّه**»(٢).

وقال الحسن: المؤمن في الدُّنْيَا كالغريب، لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال وله حال، النَّاس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب(٣).

ومن صفات هؤلاء الغرباء ـ الَّذين غبطهم النبي ﷺ: التمسك بالسُّنَّة، إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد، وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا، وأكثر النَّاس ـ بل كلهم ـ لائم لهم، فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم!

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤)، وقال: حسن. وحسَّنه الألباني في مشكاة المصابيح (٦٢٤٨).

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١١٥). والطبراني (٨٤/٢٠)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢١٤/٤، ٢١٥): هذا إسناد فيه سويد بن عبد العزيز وقد ضعفوه، وله شاهد من حديث، حارثة بن وهب رواه الشيخان، ورواه البخاري وغيره من حديث أنس، ورواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة. وضعَّفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٨٩٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٣٥٨).

QaradawiBooks.com

ومعنى قول النبي ﷺ: «**هم النزاع من القبائل**»: أنَّ الله سبحانه بعث رسوله، وأهل الأرض على أديان مختلفة، فهم بين عُبّاد أوثان ونيران، وعُبَّاد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة، وكان الإسلام في أول ظهوره غريبًا، وكان من أسلم منهم، واستجاب لله ولرسوله: غريبًا في حيه وقبيلته، وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعًا من القبائل، بل آحادًا منهم، تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباء حقًّا حتَّى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل النَّاس فيه أفواجًا، فزالت تلك الغربة عنهم، ثمَّ أخذ في الاغتراب والترحُّل، حتَّى عاد غريبًا كما بدأ، بل الإسلام الحق ـ الَّذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ـ هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة. فالإسلام الحقيقي غريب جدًّا. وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدًّا، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة. ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات. ولا يقوم لها سوق إلَّا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع الَّتي هي منتهى فضيلتهم وعلمهم، والشهوات الَّتي هي غايات مقاصدهم وإرادتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الَّذين اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شيخهم، وأُعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي ﷺ: «**مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتَّى إذا رأيتم شحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه،**

QaradawiBooks.com

ورأيت أمرًا لا يد لك به، فعليك بخاصَّة نفسك، وإياك وعوامهم؛ فإنَّ وراءكم أيامًا صَبْر الصابر فيهم كالقابض على الجمر»[(١)]. ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت ـ إذا تمسك بدينه ـ أجر خمسين من الصحابة[(٢)]. وهذا يقوي قول الحافظ ابن عبد البر في أن تفضيل قرن الصحابة تفضيل للمجموع لا لكل فرد، باستثناء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأهل بدر وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان، ومن كان له فضيلة خاصَّة من الصحابة[(٣)]. وهذا يفتح باب الأمل للأجيال اللاحقة، ويؤيده حديث الترمذي: «**مثل أمتي كمثل المطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره**»[(٤)].

ففي سنن أبي داود والترمذي ـ من حديث أبي ثعلبة الخشني ـ قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتَّى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك العوام، فإنَّ من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل**

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٥٨)، وقال: حسن غريب. وابن حبان في البر والإحسان (١٠٨/٢)، والحاكم في الرقاق (٣٥٨/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وضعَّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٩٣٤)، عن أبي ثعلبة الخشني.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢٥٥/٢٠)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، نشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.

(٤) رواه أحمد (١٢٣٢٧)، وقال مخرِّجوه: حديث قويٌّ بطرقة وشواهده. والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩)، وقال: حسن غريب. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٢٨٦)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

قبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله».
قلت: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «**أجر خمسين منكم**»[١]، وهذا الأجر إنَّما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسُّنَّة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن، الَّذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهًا في سنة رسوله، وفهمًا في كتابه، وأراه ما النَّاس فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الَّذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فإذا أراد أنْ يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير النَّاس عنه، وتحذيرهم منه[٢]، كما كان سلفهم من الكُفَّار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ، فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدح فيما هم عليه، فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويُجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة، لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده، لفساد عقائدهم. غريب في صلاته، لسوء صلاتهم. غريب في طريقه، لضلال وفساد طريقهم. غريب في نسبه، لمخالفة نسبهم. غريب في معاشرته لهم، لأنَّه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

---

(١) سبق تخريجه صـ ٩٨.

(٢) في عصرنا دخل عنصر يزيد من غربة المؤمنين الداعين إلى الله، وإلى كتابه وسُنَّة نبيه، وهو اضطهاد السلطات الحاكمة لهم، ومطاردتها لهم، واستخدام كل ما تملك من قوة لإيذائهم والتضييق عليهم، ثم كيد القوى المعادية للإسلام، وما أكثرها عددًا، وأقواها عدة، وأشدها مكرًا!

QaradawiBooks.com

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته لا يجد من العامة مساعدًا ولا معينًا. فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داعٍ إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع، آمر بالمعروف، ناه عن المنكر، بين قوم المعروفُ لديهم منكر والمنكر معروف»[1] اهـ.

بشائر من القرآن بظهور الإسلام من جديد:

أمَّا ما سأل عنه الأخ من وجود بشائر ودلائل على انتصار الإسلام في المستقبل، فهي كثيرة ومتوافرة، في كل من القرآن والسُّنَّة، وإن كان كثير من الخطباء والوعاظ يغفلونها، ولا يبرزون إلَّا ما يوحي ظاهره بالقنوط، وقد ذكرنا جملًا من هذه البشائر من قبل، فليرجع إليها.

ومن هذه البشائر:

١ ـ ظهور الصحوة الإسلاميَّة، الَّتي أعادت للأمة الثقة بالإسلام، والرجاء في غده، وقد أقلقت أعداء الإسلام في الداخل والخارج، وهي جديرة أنْ تقود الأمَّة إلى مواطن النصر، إذا قدَّر الله لها أنْ يتولَّى زمامها المرشدون الراشدون، من أولي الأيدي والأبصار، الَّذين آتاهم الله الفقه في سنن الله، والفقه في دين الله، والحكمة في النظر، والحكمة في العمل: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٢ ـ انهيار الأنظمة الشموليَّة، وخصوصًا الشيوعية الَّتي زعمت يومًا أنَّها ستغزو العالم، وترث الأديان، وتهزم الفلسفات، والَّتي لقيت أولى

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم (٣/١٨٥ ـ ١٨٩).

QaradawiBooks.com

هزائمها على أيدي إخواننا المجاهدين في أفغانستان، والَّذين انتصروا بأسلحتهم العتيقة على أعتى دولة ملحدة في التاريخ.

لقد سقطت قلاع الشيوعية واحدة بعد الأخرى، بدءًا بالاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية، وانتهاء بألبانيا.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حديث: «لا يأتي عليكم زمان إلَّا والَّذي بعده شر منه»

س: كنت أقرأ في كتاب ديني، فصادفني فيه حديث اقشعر له جلدي، ولم أكد أصدقه لأول وهلة، فالحديث يقول فيه النبي ﷺ: «**لا يأتي عليكم زمان إلَّا والَّذي بعده شرٌّ منه**».

ولما سألت عنه بعض العلماء الَّذين لهم معرفة بالحديث أخبرني بأنَّ الحديث صحيح، وأنَّه من رواية البخاري، فأسقط في يدي، فماذا عسى أنْ أقول إذا كان الحديث في «صحيح البخاري»، أصح كتاب في الإسلام بعد كتاب الله تعالى؟

فهل معنى هذا الحديث أننا في انحدار دائم، وتدهور مطَّرد، وأننا ننتقل من حسن إلى سيئ، ومن سيئ إلى أسوأ، ومن أسوأ إلى ما هو أشد سوءًا، حتَّى تقوم الساعة؟

هذا مع أن هناك كثيرًا من النَّاس يعتقدون عكس هذا تمامًا: إنَّ الحياة تترقَّى، والدنيا تتطور، والإنسان يزداد كل يوم علمًا بالعالم من حوله، ومن تحته ومن فوقه حتَّى وصل إلى القمر في السماء!

ثم إنَّ الحديث يلقي في نفوسنا أن لا أمل في شيء، ولا نجاة لنا ممَّا نحن فيه، ما دمنا ننحدر إلى الهاوية يومًا بعد يوم، فهذا قدر كتبه الله علينا، وسنَّة صارمة لازمة دائمة لا بدَّ أن نخضع لها. حتَّى تقوم الساعة على لكع ابن لكع، أي كافر ابن كافر، كما سمعنا من السادة العلماء.

QaradawiBooks.com

ولقد علمت من بعض الإخوة المتتبعين لما تكتبون بأنْ لكم في هذا الحديث تأويلًا أودعتموه بعض كتبكم، أرجو أنْ تدلَّني عليه، عسى أن يزيح ما بنفسي من قلق، وما بقلبي من حيرة وبلبلة.

جزاكم الله عن العلم والإسلام خير الجزاء.

م. ك.ع

الرباط ـ المغرب

ج: الحديث المذكور رواه الإمام البخاري في جامعه الصحيح، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، فهو حديث صحيح من ناحية سنده، ولكن الآفة تأتي هنا من فهمه فهمًا يخالف سنن الله، أو حقائق العلم، أو ثوابت الواقع، ولا يمكن أنْ يأتي الدين بما يخالف ذلك، لأنَّ الدين حق، وهذه الأشياء المذكورة حق، والحقُّ لا يتناقض، فإما أن يكون لهذه الأشياء تفسير غير ما يبدو لنا، أو يكون للنص الديني تأويل غير الظاهر المتبادر منه.

وأحاديث «الفتن» وما يتعلق بما يسمَّى «آخر الزمان» أو «أشرط الساعة» يكثر فيها سوء الفهم، ولذا ينبغي التأمل الطويل في معانيها، حتَّى لا يتخذها النَّاس وسيلة لقتل كل بذرة للأمل، ووأد كل محاولة للإصلاح والتغيير.

والحديث المذكور نموذج لهذا النوع من الأحاديث. وقد تعرضت لبيان معناه، وردِّ الأفهام الخاطئة الَّتي أحاطت به، وذلك في كتابي «كيف نتعامل مع السُّنَّة النبويَّة» وكان ممَّا قلته في ذلك:

هل كل زمن شر ممَّا قبله؟

روى البخاري بسنده إلى الزبير بن عدي، قال: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: «**اصبروا، فإنَّه لا يأتي**

QaradawiBooks.com

عليكم زمان إلَّا الَّذي بعده شـــر منه، حتَّى تلقوا ربكم». سمعته من نبيكم ﷺ[١].

يتخذ بعض النَّاس من هذا الحديث تكأة للقعود عن العمل، ومحاولة الإصلاح والإنقـــاذ، مدَّعيًا أنَّ الحديث يدلُّ علـــى أنَّ الأمور في تدهوُر دائم، وسقوط مســـتمر وهوى متتابع، من درك إلى درك أسفل منه، فهي لا تنتقل من سيئ إلَّا إلى أســـوأ، ولا من أسوأ إلَّا إلى الأسوأ منه. حتَّى تقوم الساعة على شرار النَّاس ويلقى النَّاس ربهم.

وآخرون توقَّفوا في قبول الحديث، وربَّما تعجل بعضهم فردَّه، لأنَّه في ظنه يدعو:

أولًا: إلى اليأس والقنوط.

وثانيًا: إلى السلبية في مواجهة الطغاة من الحكام المنحرفين.

وثالثًا: يعارض فكرة «التطور» الَّتي قام عليها نظام الكون والحياة.

ورابعًا: ينافي الواقع التاريخي للمسلمين.

وخامسًا: يعارض الأحاديث الَّتي جاءت في ظهور خليفة يملأ الأرض عدلًا «وهو الَّذي عرف باسم المهدي»[٢] وفي نزول عيسى بن مريم[٣]، وإقامته لدولة الإسلام، وإعلاء كلمته في الأرض كلها.

---

(١) رواه البخاري في الفتن (٧٠٦٨).

(٢) إشارة لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يرفعه قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يملك رجل مـــن أهل بيتي، أجلى أقنى، يمـــلأ الأرض عدلًا، كما ملئت قبله ظلمًا، يكون ســـبع ســـنين». رواه أحمد (١١١٣٠)، وقال مخرِّجوه: صحيح دون قوله: «يكون سبع سنين». وابن حبان في التاريخ (٦٨٢٦).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٢)، ومسلم في الإيمان (١٥٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ومن الحقِّ علينا أنْ نقول: إنَّ السابقين من علمائنا قد وقفوا عند هذا الحديث مستشكلين «الإطلاق» فيه. يعنون بالإطلاق ما فهم من الحديث: أنَّ كل زمن شر من الَّذي قبله، مع أنَّ بعض الأزمنة تكون في الشر دون الَّتي قبلها، ولو لم يكن في ذلك إلَّا زمن عمر بن عبد العزيز، وهو بعد زمن الحجاج ـ الَّذي عمت الشكوى منه ـ بيسير، وقد اشتهر الخير الَّذي كان في زمن عمر بن عبد العزيز، بل لو قيل: إنَّ الشر اضمحل في زمانه، لما كان بعيدًا، فضلًا عن أنْ يكون شرًّا من الَّذي قبله.

وقد أجابوا عن هذا بعدة أجوبة:

١ ـ فالإمام الحسن البصري حمل الحديث على الأكثر الأغلب، فقد سئل عن عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج، فقال: لا بدَّ للناس من تنفيس[١]!

٢ ـ وجاء عن ابن مسعود ﷺ من قوله: «لا يأتي عليكم زمان إلَّا وهو أشر ممَّا كان قبله، أمَّا إنِّي لا أعني أميرًا خيرًا من أمير، ولا عامًا خيرًا من عام، ولكنْ علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون، ثمَّ لا تجدون منهم خلفًا، ويجيء قوم يفتون برأيهم»، وفي لفظ عنه: «فيثلمون الإسلام ويهدمونه»[٢]. ورجح الحافظ في «الفتح» تفسير ابن مسعود لمعنى الخيرية والشرية هنا، قائلًا: وهو أولى بالاتباع[٣].

ولكنَّه في الواقع لا ينفي الاستشكال من أساسه، فالنصوص تدلُّ على أنَّ في الغيب أدوارًا للإسلام ترتفع فيها رايته وتعلو كلمته، ولو لم يكن إلَّا زمن المهدي والمسيح في آخر الزمان لكفى.

---

(١) انظر: فتح الباري (٢١/١٣)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٢) رواه الدارمي في المقدمة (١٩٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٠٠٧).

(٣) فتح الباري (٢١/١٣).

QaradawiBooks.com

والتاريخ يثبت أنَّه قد جاءت فترات ركود وجمود في العالم أعقبتها أزمنة حركة وتجديد، ويكفي أن نذكر مثلًا مَنْ ظَهَر في القرن الثامن مِن العلماء والمجددين ـ بعد سقوط الخلافة الإسلاميَّة في بغداد، وتدهور الأوضاع في القرن السابع، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وسائر تلاميذه في الشام، والشاطبي في الأندلس، وابن خلدون في المغرب، وغيرهم ممن ترجم لهم ابن حجر في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة».

وفي العصور الَّتي تلت ذلك نجد مثل ابن حجر، والسيوطي في مصر، وابن الوزير في اليمن، والدهلوي في الهند، والشوكاني والصنعاني في اليمن، وابن عبد الوهاب في نجد، وغيرهم من العلماء الأجلاء المجتهدين والأئمة المجددين.

وهذا ما جعل الإمام ابن حبان في «صحيحه» يرى أنَّ حديث أنس ليس على عمومه، مستدلًّا بالأحاديث الواردة في المهدي، وأنَّه يملأ الأرض عدلًا، بعد أنْ ملئت جورًا[١].

٣ ـ ولهذا أرى أنْ أرجح التفسيرات لهذا الحديث ما ذكره الحافظ في «الفتح» بقوله: «ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة، بناء على أنَّهم هم المخاطبون بذلك، فيختص بهم، فأما من بعدهم فلم يقصد في الخير المذكور، لكن الصحابي فهم التعميم ـ فلذلك أجاب من شكا إليه الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر، وهم ـ أو جلهم ـ من التابعين»[٢] اهـ.

(١) صحيح ابن حبان (٢٨٢/١٣، ٢٨٣).

(٢) فتح الباري (٢١/١٣).

QaradawiBooks.com

وعلى هذا التفسير يحمل كلام ابن مسعود أيضًا: فهو خاص بأزمنة من كان يخاطبهم من الصحابة والتابعين، وقد توفي في زمن عثمان رضي الله عنه.

وأمَّا زعم من زعم أنَّ الحديث يتضمن دعوة إلى السكوت على الظلم والصبر على التسلط والجبروت، والرضا بالمنكر والفساد، ويؤيد السلبية في مواجهة الطغاة المتجبرين في الأرض.

فالرد على ذلك من عدة أوجه:

أولًا: إنَّ القائل «اصبروا» هو أنس رضي الله عنه، فليس هو من الحديث المرفوع، وإنَّما استنبطه منه، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك ما عدا المعصوم ﷺ.

ثانيًا: إن أنسًا لم يأمرهم بـ «الرضا» بالظلم والفساد، وإنَّما أمرهم بـ «الصبر» وفرق كبير بين الأمرين، فإنَّ الرضى بالكفر كفر، وبالمنكر منكر، أمَّا الصبر فقلَّما يستغني عنه أحد، وقد يصبر المرء على الشيء، وهو كاره له، ساع في تغييره.

ثالثًا: إن من لم يملك القدرة على مقاومة الظلم والجبروت، ليس له إلَّا أن يعتصم بالصبر والأناة، مجتهدًا أن يعد العدة، ويتخذ الأسباب، معتضدًا بكل من يحمل فكرته، منتهزًا الفرصة المواتية، ليواجه قوَّة الباطل بقوة الحق، وأنصار الظلم بأنصار العدل، وجند الطاغوت بجند الله.

وقد صبر النبي ﷺ ثلاثة عشر عامًا في مكَّة على الأصنام وعبَّادها، فيصلي بالمسجد الحرام، ويطوف بالكعبة وفيها وحولها ثلاثمائة وستون صنمًا، بل طاف في السنة السابعة من الهجرة مع أصحابه في

QaradawiBooks.com

عمرة القضاء، وهو يراها ولا يمسها، حتَّى أتى الوقت المناسب يوم الفتح فحطمها.

ولهذا قرَّر علماؤنا: أنَّ إزالة المنكر إذا ترتَّب عليه منكر أكبر منه وجب السكوت عنه حتَّى تتغير الأحوال.

وعلى هذا لا ينبغي أنْ يفهم من الوصية بالصبر، الاستسلام للظلم والطغيان، بل الانتظار والترقب حتَّى يحكم الله، وهو خير الحاكمين.

رابعًا: إنَّ الصبر لا يمنع من قول كلمة الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام الطغاة المتألهين، وإن لم تكن واجبة على من يخاف على نفسه أو أهله ومن حوله، فقد جاء في الحديث: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[(١)]، «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»[(٢)].

* * *

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤٤)، والترمذي في الفتن (٢١٧٤)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه. وابن ماجه في الفتن (٤٠١١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٩١)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (١٩٥/٣)، وصحَّح إسناده، وقال الذهبي: الصفار ـ أحد الرواة ـ لا يُدرَى من هو. والخطيب في تاريخ بغداد (٥٣/٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٧٤)، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

حديث: «خير القرون قرني ثمَّ الَّذين يلونهم»

لقد استنبط بعض الباحثين المعاصرين من حديث «**خير القرون قرني ثمَّ الَّذين يلونهم، ثمَّ الَّذين يلونهم**»[١]. مقولة غريبة، مضمونها: أنَّ الإنسانيَّة الَّتي يحتضنها الإسلام تتقدم نحو ما هو أسوأ، لا نحو ما هو أفضل، وأن هذا التقدم إلى الأسوأ حتمي لا رادّ له، وفقًا لهذا الحديث وأمثاله.

ولهذا يرجح أنَّ هذه الأحاديث موضوعة مصنوعة، إما لتبرير ما حدث بالفعل، إذا فرضنا أنَّ الواضعين هم مسلمون فعلًا، وإما لتوجيه مسيرة الإسلام في طريق اليأس، إذا فرضنا أنَّ الواضعين منافقون[٢].

والحقُّ أنَّ الحديث صحيح متفق على صحته بين علماء الإسلام، لم يطعن عالم سنّي ولا معتزلي ـ فيما أعلم ـ في سنده أو متنه، بل ذكر ابن حجر والسيوطي وغيرهما من أئمَّة النقل أنَّه من المتواتر[٣].

فاعتبار هذا الحديث موضوعًا: اتهام للأمة كلها بالجهل والغباء، وترويج الباطل، واجتماعها على الضلالة طوال تلك العصور، وهذا مدخل لنسف الدين كله.

---

(١) الحديث: متَّفق عليه بألفاظ متقاربة: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣)، عن ابن مسعود. ورواه البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥)، عن عمران بن حصين. ورواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٦)، عن عائشة. ورواه في فضائل الصحابة (٢٥٣٤)، عن أبي هريرة.

(٢) انظر: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث للدكتور فهمي جدعان صـ ٢١ وما بعدها، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.

(٣) انظر: نظم المتناثر في الحديث المتواتر للكتاني (٢٤٠)، تحقيق شرف حجازي، نشر دار الكتب السلفية، مصر، ط٢.

QaradawiBooks.com

أمَّا ما فهمه الباحث الفاضل من الحديث، وما رتَّبه عليه من نتائج، فهو غير مسلَّم له.

فالحديث إنَّما دلّ على فضل الجيل الَّذي تلقّى عن رسول الله ﷺ، وتربّى في حضانة النبوة، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات الله، ومن هدي رسول الله، وحمَّله القدر من المهمات ما لم يحمله غيره، فهو الجيل الَّذي نقل القرآن للأمة، وروى لها السنن، وفتح الله على يديه البلاد، وهدى به العباد. ثمَّ الجيل الَّذي تتلمذ على هؤلاء الأصحاب، واقتبس من مشكاتهم، واقتفى آثارهم، والجيل الثالث الَّذي سار على دربهم واتبعهم بإحسان، فرضي الله عنهم، ورضوا عنه.

ولا يشك دارس منصف أن «الإشعاع الروحي» لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة، كان من القوَّة والعمق والسعة، بحيث لا يلحقه جيل آخر، وهذا في الجملة لا في التفصيل، وفي أمر الدين والتقوى لا في أمر الحياة والعلم والعمران، فهذه قد تتفوق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضلة في الالتزام الديني.

وقد بشَّر الرسول ﷺ أُمَّته أنَّهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر، وسينفقون كنوزهما في سبيل الله، وأنهم سيملكون المشرق والمغرب يومًا، وأنَّ الرخاء سيبلغ مدى لا يكاد يجد ذو المال يومها من يقبل منه الصدقة[١]، وأنَّ الأمن سَيَسْتَتِب حتَّى أنَّ المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتَّى تطوف بالبيت الحرام، لا تخاف إلَّا الله[٢]، وأنَّ

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٤١٢)، ومسلم (١٥٧) (٦١)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في المناقب (٣٥٩٥)، عن عدي بن حاتم.

QaradawiBooks.com

أرض العرب ستعود يومًا مروجًا وأنهارًا[١]. فهل يعتبر هذا كله «تقدمًا إلى الأسوأ»؟!

إنَّ أي قارئ غير متعصب ولا متعسف للتاريخ يعلم أنَّ الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ طوّروا كثيرًا من أمور الحياة، وأدخلوا عليها تحسينات وإضافات لم تكن في عصر النبوَّة، وهم الَّذين أمرنا أن نتبع سُنَّتهم، ونعضّ عليها بالنواجذ، فهي امتداد للسُّنَّة النبويَّة المطهرة.

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين في عهد الأمويين والعباسيين، يبتكرون ويضيفون أشياء لم تكن في العصر النبوي ولا العصر الراشدي، أقرّهم عليها علماء الأمَّة، وانعقد الإجماع على مشروعيتها.

ويكفي أنْ تمَّ فيها استبحار علوم الدين واللغة، وتدوينها وتأصيلها، وظهور المدارس العلمية والفكرية في شتَّى أنواع العلوم والآداب، ثمَّ اقتباس علوم الأمم الأخرى، عن طريقة الترجمة، ثمَّ تدارسها وإنضاجها وتهذيبها، وإعمال يد التعديل والتحسين والتحوير فيها، بالحذف والإضافة والتغيير؛ والتقديم والتأخير، حتَّى تنسجم مع المزاج العام للأمة، وتتواءم مع دينها وقيمها وثقافتها، وتجد لها مكانًا في حياتها العقليَّة والوجدانية والاجتماعيَّة.

ثم ابتكار علوم جديدة كاملة، لم يعرفها السابقون.

وفي هذا الإطار نشأت الحضارة الإسلاميَّة الفارعة الرائعة، ثابتة الأصول، باسقة الفروع، وارفة الظلال، مباركة الثمار.

ولم يتوقف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة في مختلف مجالاتها،

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٥٧) (٦٠)، وأحمد (٩٣٩٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وشتَّى فروعها، بدعوى أنَّ هناك أحاديث تغلّ أيديهم، أو تقيّد أرجلهم، أو تشل تفكيرهم، محتّمة عليهم «التقدم إلى الأسوأ»!

صحيح أنَّ الأجيال المسلمة الَّتي صنعت هذه الحضارة الشمَّاء، لم تكن في شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحية الإيمانية «الروحية»، وهو أمر اعترف به الجميع، ولكن هذا لم يقف حائلًا أمام تفوقهم العلمي، وتقدمهم الحضاري، وجهادهم الأخلاقي. بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل المثالي نصب أعينهم، باعتباره مثلًا إنسانيًّا أعلى، وبذلك يجمعون بين الحسنيين أو يحاولون ذلك على الأقل: حسنة الإبداع الحضاري المادي، وحسنة السمو الروحي، والترقّي الإيماني والخلقي.

على أنَّ هناك أحاديث أخرى تبين فضل الأجيال اللاحقة، وتنوّه بصبرها وثباتها في عصور الفتن والأزمات الَّتي يمتحن فيها أهل الإيمان، وحملة رسالة الإسلام، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر. حتَّى ذكر الحديث أن للعامل فيها أجر خمسين! قيل: منا أو منهم يا رسول الله؟ قال: «**بل منكم**»[١].

كما صحَّت أحاديث كثيرة تبشر بغد مشرق، ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام، وملك واسع لدولته.

وصحَّ الحديث كذلك أنَّ الله يبعث في كل مائة سنة من يجدد للأمة دينها[٢]، وبذلك يتجدَّد أملها، ويقوى رجاؤها، في صلاح الحال إذا فسد، وقوَّة الدين إذا ضعف، واستقامة الأمر إذا اعوج.

(١) سبق تخريجه صـ٩٨.

(٢) سبق تخريجه صـ٣٤.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

استمرار الخير في سائر أجيال الأمة:

وإيمان المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعني أن باب الله قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة، وأنَّ الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات، فقد حازتها تلك القرون، ولم يعد أمامها إلَّا الفتات إن بقي الفتات.

بل الحقُّ الَّذي لا ريب فيه أن باب الله تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة: واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمَّة في كل العصور، ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وكم ترك الأول للآخر، وكم في الإمكان أبدع ممَّا كان. وفي الحديث الشريف «**مثل أمتي كالمطر، لا يدرى أوله خير أم آخره**»[1].

يقرر الشراح هنا: أنَّه كما لا يحكم بوجود النفع في بعض الأمطار دون بعض، فكذلك لا يحكم بوجود الخيرية في بعض أجيال الأمَّة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه، وفي هذا إيماء إلى أن باب الله مفتوح، وطلب الفيض من جنابه مفسوح. فكل طبقة من طبقات الأمَّة لها خاصية وفضيلة، توجب خيريتها، كما أنَّ كل نوبة من نوبات المطر لها فائدتها في النشوء والنماء لا يمكن إنكارها. فإنَّ الأولين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات، وتلقوا دعوة الرسول بالإجابة والإيمان، والآخرين آمنوا بالغيب، لما تواتر عندهم من الآيات، واتَّبعوا من قبلهم بالإحسان. وكما أنَّ المتقدمين اجتهدوا في التأسيس والتمهيد، فالمتأخرون بذلوا وسعهم في التقرير والتأكيد، فكلٌّ ذنبهم مغفور، وسعيهم مشكور، وأجرهم موفور.

(١) سبق تخريجه صـ٩٨.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قالوا: والمراد هنا وصف الأمَّة قاطبة ـ سابقها ولاحقها، أولها وآخرها ـ بالخير، وأنَّها ملتحمة بعضها ببعض، مرصوصة كالبنيان، مفرغة كالحلقة الَّتي لا يُدرى أين طرفاها[١].

والمسلمون في كل مكان وزمان يرددون هذا القول بوصفه حديثًا نبويًّا: «**الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة**»[٢]. ومعناه صحيح، وإن لم يرد بهذا اللفظ.

فقد صحَّت جملة أحاديث عن عدد من الصحابة تؤكد أن «**لا تزال طائفة من هذه الأمَّة قائمة على الحق حتَّى يأتي أمر الله**»[٣]، وهو ما يتفق مع منطوق القرآن الكريم ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١].

كما صحَّت أحاديث تبشر بمستقبل مشرق للإسلام، تعلو فيه كلمته، وتنشر دعوته، وتتسع دولته[٤].

سنن وقواعد مطردة:

ولقد وضح لدى الأجيال المسلمة طوال القرون: أنَّ ثمة مبادئ راسخة، وقواعد ثابتة، وسننًا مطَّردة، من محكمات القرآن والسُّنَّة، يحتكم إليها الجميع، منها:

---

(١) انظر: قوت المغتذي على جامع الترمذي للسيوطي (٧١٣/٢، ٧١٤)، تحقيق ناصر بن محمد بن حامد الغريبي، نشر جامعة أم القرى بمكة المكرمة، سنة ١٤٢٤هـ.

(٢) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (٤٦٨): قال شيخنا (أي ابن حجر): لا أعرفه، ولكن معناه صحيح. تحقيق محمد عثمان الخشت، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٣) سبق تخريجه صـ٣٣.

(٤) انظر في ذلك: السلسلة الصحيحة للألباني، الجزء الأول، الأحاديث (١ ـ ٦)، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

QaradawiBooks.com

١ ـ أنَّ لكل عمل ثمرة، ولكل جهد جزاء، في الدُّنْيَا قبل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

٢ ـ أنَّ الجهاد في الله، سواء كان جهادًا روحيًّا أم ماديًّا، لا يهدره الله أبدًا: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٣ ـ أنَّ مَنْ نَصَرَ اللهَ نَصَرَه اللهُ، ومكَّن له في الأرض، وإنَّما ينصر الله بالإيمان وعمل الصالحات، والصالحات: كل ما تصلح به الحياة روحيًّا وماديًّا، وما يصلح به الإنسان فرديًّا وجماعيًّا. يقول تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

موسوعة الأعمال الكاملة
لسماحة الإمام
يوسف القرضاوي

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

١١٩

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	٩٢
سورة البقرة		
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾	١٤٣	٦٥
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾	٢١٤	٤، ١٩، ٢٠
﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾	٢٥٧	١٩
﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾	٢٦٩	١٠٠
سورة آل عمران		
﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾	١٢	٢١
﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	١٣	٢١
﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾	١٢٣	٤٠، ٤٢
﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	١٣٩ ـ ١٤١	٧٠
﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ﴾	١٦٥	٨٧

QaradawiBooks.com
نسخة مجانية

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النساء		
﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾	١٣٣	٢٣
﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾	١٥٨	٣٥
سورة المائدة		
﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾	٤٨	١١٣
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾	٥٤	٢٣
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾	١٠٥	٩٨
سورة الأنعام		
﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	١١٦	٩٤
﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾	١٦٢	٦٤
سورة الأعراف		
﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾	٨٦	٦٣
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾	٩٦	٣٠
﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾	١٢١، ١٢٢	١٨
﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	١٢٩	٧٣
﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾	١٦٤	٨١
﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾	١٦٥	٨١
﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾	١٧٠	١١٥
﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾	١٨١	١١٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأنفال		
﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾	٥	٣٩
﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾	٦	٣٩
﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾	٩	٣٩
﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ ﴾	١٠	٣٩
﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾	١٢	٨٣
﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ ﴾	١٧	٢٢، ٣٩
﴿ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	١٩	١٩
﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾	٢٦	٤٢
﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾	٣٠	٢١، ٥٨
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾	٣٦	٢١
﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ ﴾	٤٢	٣٩
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾	٥٣	٧٤
﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾	٥٤	٧٤
﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	٦٢	٨٣
﴿ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ ﴾	٦٥	٨٣
سورة التوبة		
﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ ﴾	٢٥ ـ ٢٧	٤١
﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾	٣٢	٤، ١٣

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾	٣٣	٤، ١٣، ١٤، ١٥، ٢٦
﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾	٤٠	٣٨
سورة يونس		
﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾	٨١	٢١
﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾	٨٢	٢١
﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	١٠٣	١٩
سورة هود		
﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ ﴾	١١٦	٩٢
سورة يوسف		
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾	١١٠	٢٠، ٤١
سورة الرعد		
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾	١١	٧٥
سورة إبراهيم		
﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾	١٩، ٢٠	٢٣
سورة النحل		
﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾	٨٩	٦٥
سورة الكهف		
﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾	٣٠	١١٥
﴿ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴾	٩٨	١٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأنبياء		
﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾	١٠٥	٧٣
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	١٠٧	٦٥
سورة الحج		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾	٣٨	١٩
﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾	٤٠	١١٥
﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾	٤١	١١٥
سورة المؤمنون		
﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾	١ ـ ٩	٤٨
سورة النور		
﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾	٥٥	١٦، ١٧، ١١٥
سورة الشعراء		
﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾	٥٣ ـ ٥٩	١٩
سورة النمل		
﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾	٦٥	٢٥
﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾	٩٣	١٠
سورة القصص		
﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾	٤ ـ ٦	١٨
﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ ﴾	٨	١٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة العنكبوت		
﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾	٦٩	٨٧، ١١٥
سورة الروم		
﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾	٤٧	١٩
سورة الأحزاب		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾	٩	٤٠
﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾	١٠، ١٣	٤٠
﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ ﴾	٢٥	٤٠
سورة فاطر		
﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾	١٦، ١٧	٢٣
﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾	٤٣	٧١
سورة فصلت		
﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾	٥٣	٤، ٢٤
سورة محمد		
﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾	٣٨	٢٣
سورة الفتح		
﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾	١	٢٨
﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ ﴾	٢٨	١٥، ٢٦

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحشر		
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ ﴾	٢	٢٢، ٣٢
سورة الصف		
﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾	٨	١٥
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾	٩	١٥، ٢٦
سورة الطلاق		
﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾	٢	٧٨
﴿ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ﴾	٣	٧٨
﴿ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾	٧	٧٢
سورة الجن		
﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾	٢٦، ٢٧	٢٦
سورة الطارق		
﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۞ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۞ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾	١٥ ـ ١٧	٢١
سورة الشرح		
﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴾	٥، ٦	٧٢

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر	٥٠
أرض العرب ستعود يومًا مروجًا وأنهارًا	١١١
اصبروا، فإنَّه لا يأتي عليكم زمان إلَّا الَّذي بعده شر منه، حتَّى تلقوا ربكم	١٠٣، ١٠٤
أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر	١٠٨
ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى يا رسول الله	٩٦
ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس	٩٥
الَّذين تُحِبُّونهم ويُحِبُّونكم، وتُصَلُّون عليهم (أي تدعون لهم) ويصلون عليكم	٥١
الذين يحيون سنَّتي، ويعلّمونها الناس	٩٣
الذين يصلحون إذا فسد الناس	٩٢
اللهمَّ أنجزْ لي ما وَعَدْت، اللهمَّ إنْ تهلك هذه العصابة	٣٩
أُمرت أنْ أقاتل النَّاس حتَّى يقولوا: لا إلٰه إلَّا الله	٤٣
أمرني خليلي ﷺ بسبعٍ	٢٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ أحبَّ شيء إلى الله الغرباء قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرَّارون بدينهم	٩٣
إنَّ الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء	٩٣
إنَّ الله أجاركم من ثلاث خلال: ألَّا يدعو عليكم نبيُّكم فتهلكوا جميعًا	٣٤
إنَّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها	٥، ١٤، ١٧، ٢٩
إنَّ الله يبعث لهذه الأمَّة على رأس كلِّ مائة سنة، مَنْ يُجدِّد لها دينها	٣٤، ١١١
إنَّ الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الَّذين إذا غابوا لم يفتقدوا	٩٤
إنْ قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتَّى يغرسها، فليغرسها	٨٩
إنَّما بُعِثْتُ لأتمِّم مكارمَ الأخلاق	٦٥
إنَّه ستُفْتَح لكم مشارقُ الأرض ومغاربُها، وإنَّ عُمَّالها في النار	١٤
ب	
بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء	٨٨، ٩٢، ٩٣، ٩٥
بشَّر الرسول ﷺ أُمَّته أنَّهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر	١١٠
بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتَّى إذا رأيت شحًّا مطاعًا	٩٨
ت	
تصدَّقوا، فإنَّه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها	٣٠
تقاتلكم اليهود، فتُسلَّطون عليهم، ثمَّ يقول الحجر: يا مسلم، هذا يهوديٌّ ورائي	٣١
تكون النبوَّة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثمَّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها	٣٠

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
خ	
الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة	١١٤
خير القرون قرني ثمَّ الَّذين يلونهم، ثمَّ الَّذين يلونهم	١٠٩
ر	
رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره	٩٦
س	
سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله	١٠٨
ط	
طوبى للغرباء. قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟	٩٢، ٩٣
طوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل	٨٩، ٩٠، ٩٣
ك	
كن في الدُّنْيَا كأنك غريب	٩٠
ل	
لا إلٰه إلَّا الله، وأدناها: إماطة الأذى من الطريق، والحياء شُعْبة من الإيمان	٥٠
لا تزال طائفة من أُمَّتي على الدِّين ظاهرين لعدوهم قاهرين	٥، ٣٢، ٣٣، ١١٤
لا تقوم الساعة حتَّى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا	٢٩
لا تقوم الساعة حتَّى تُملأ الأرض ظلمًا وجورًا وعدوانًا	٣٦
لا تقوم الساعة حتَّى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون	٣١

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
لا تقوم الساعة حتَّى يكثر فيكم المال فيفيض	٣٠
لا يأتي عليكم زمان إلَّا والَّذي بعده شرٌّ منه	١٠٢
لا يبقى على ظهر الأرض بيت مَدَرٍ، ولا وَبَرٍ إلَّا أدخله الله كلمة الإسلام	٥، ٢٧
لا يذهبُ الليلُ والنَّهار حتَّى تُعْبَدَ اللَّات والعُزَّى	١٥
لو لم يبقَ من الدُّنْيَا إلَّا يوم، لبعث الله رجلًا مِنَّا، يملؤها عدلًا، كما مُلِئَتْ جورًا	٣٦
ليأتينَّ على النَّاس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب!	٣٠
ليبلغنَّ هذا الأمر ـ يعني أمر الإسلام ـ ما بلغ الليل والنَّهَار	٢٦
م	
ما ظَنُّكَ يا أبا بَكْرٍ باثنين الله ثالثهما	٣٨
مثل أمتي كمثل المطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره	٩٨، ١١٣
مثل المؤمن حين يصيبه الوعك أو الحمَّى، كمثل الحديدة تدخل النار	٧٠
مدينة هرقل تفتح أوَّلًا	٢٧
المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتَّى تطوف بالبيت الحرام	١١٠
مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتَّى إذا رأيتم شحًّا مطاعًا	٩٧
ن	
نزول عيسى بن مريم	١٠٤
نعم هو فتح	٢٨
هـ	
هم النزاع من القبائل	٩٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ي	
يا رب؛ وحيد مريض غريب، فقيل له: يا موسى؛ الوحيد: من ليس له مثلي أنيس	٩٥
يا عَدِيُّ أسلمْ تسلمْ فقلتُ: إنِّي من أهل دين. قال: أنا أعلم بدِينِكِ منك	١٤
يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوعا	٧
ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين	٥٧

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

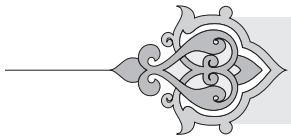

فهرس الموضوعات

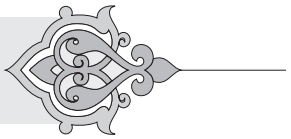

❖ **من الدستور الإلٰهي للبشرية** ٤

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** ٥

• **مقدمة** ٧

❖ **المُبشِّرات بانتصار الإسلام** ١١

❖ **١ ـ المُبشِّرات من القرآن الكريم** ١٣

قصص الرسل وعاقبة المؤمنين والمُكَذِّبين ١٨

اقرأ هذه الآيات من سورة القصص ١٨

وعد الله بنصر المؤمنين وإنجائهم والدفاع عنهم ١٩

وعد الله بإحباط كيد الكافرين ومؤامراتهم ٢١

فسوف يأتي الله بقومٍ يُحِبُّهم ٢٢

سنُرِيهم آياتنا ٢٤

❖ **٢ ـ المُبشِّرات من السُّنَّة النبويَّة** ٢٥

١ ـ انتشار الإسلام في العالَم كلِّه ٢٦

٢ ـ عودة الإسلام إلى أوربا وفتح رُوميَّة ٢٧

٣ ـ اتساع دولة الإسلام في المشارق والمغارب ٢٩

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

٤ ـ الرخاء والأمن وفيض المال ٢٩
٥ ـ عودة الخلافة على منهاج النبوَّة ٣٠
٦ ـ الانتصار على اليهود ٣١
٧ ـ بقاء الطائفة المنصورة ٣٢
٨ ـ ظهور المُجَدِّدين في كلِّ قرن ٣٤
٩ ـ نزول المسيح ٣٤
١٠ ـ ظهور المهدي ٣٥

❖ **٣ ـ مُبَشِّرات من التاريخ ٣٧**
حقيقتان كبيرتان من التاريخ ٣٧
نزول النصر أحوج ما نكون إليه ٣٧
قوة الأمَّة عند الشدائد ٤١
أ ـ في حروب الردَّة ٤٢
ب ـ في الحروب الصليبيَّة ٤٣
جـ ـ في حروب التتار ٤٥
د ـ حروب التحرير في العصر الحديث ٤٦

❖ **٤ ـ مُبَشِّرات من الواقع ٤٧**
أمراض الواقع وآفاته ٤٧
الواقع المريض لا يستمرُّ ٥١
بين الأمس واليوم ٥١
استمرار حركة الإحياء والتجديد ٥٧

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الصحوة الإسلاميَّة وآثارها في الحياة الإسلاميَّة ٥٨
التيار الإسلامي أقوى وأرجح في الميزان ٦١
قوَّة الجماهير المؤمنة ٦١
قوة المنهج ٦١
القوى المكنونة في حنايا الأمَّة ٦٢
القوى الَّتي تملكها الأمة ٦٣
١ ـ القوى البشريَّة ٦٣
٢ ـ القوَّة المادِّيَّة والاقتصاديَّة ٦٤
٣ ـ القوَّة الروحيَّة ٦٤
تحذيرات الأجانب من القوَّة المذخورة في الإسلام وأمته ٦٦
محن الدعاة ٦٩
❖ **٥ ـ مُبشِّرات من السنن الإلٰهية ٧١**
١ ـ سنة التداول ٧١
سُنَّة التغيير ٧٣
وقفات لا بدَّ منها ٧٥
تنبيه على أمرين ٧٧
حسن البنا والأمل ٧٨
أ ـ نظرة فلسفية اجتماعيَّة ٧٩
ب ـ نظرة تاريخية ٨٠
هل هناك طريق أخرى؟ ٨١
المُبشِّرات تدفع إلى المزيد من العمل ٨٢

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة

❖ **أضواء على أحاديث أُسيءَ فهمها** ٨٨
حديث: «بدأ الإسلام غريبًا» ٨٨
بشائر من القرآن بظهور الإسلام من جديد ١٠٠
ومن هذه البشائر ١٠٠
حديث: «لا يأتي عليكم زمان إلَّا والَّذي بعده شر منه» ١٠٢
هل كل زمن شر ممَّا قبله؟ ١٠٣
حديث: «خير القرون قرني ثمَّ الَّذين يلونهم» ١٠٩
استمرار الخير في سائر أجيال الأمة ١١٣
سنن وقواعد مطردة ١١٤

- **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** ١١٩
- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** ١٢٧
- **فهرس الموضوعات** ١٣٣

* * *

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية